الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ

جامعة تلمسان

كلّيّة العلوم الإنسانيّة والعلوم الاجتماعيّة

تخصّص الأنثروبولوجيا

مذكّرة لنيل شهادة الماجستير تحت عنوان

الإستراتيجيّات القرابيّة لدى العائلات التّلمسانيّة الكبيرة: الاختيارات والرّهانات

من إعداد الطّالب:

دالي أحمد شكيب

تحت إشراف:

الأستاذ الدّكتور: سعيدي محمّد

لجنة المناقشة:

الدّكتور حمزة شريف علي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	رئيسا .
الدّكتورة رمعون نوريّة	أستاذة محاضرة (أ)	جامعة وهران	عضوا.
الدّكتور بن لبّاد الغالي	أستاذ محاضر (ب)	جامعة تلمسان	عضوا.

السّنة الجامعيّة: 2011 م- 2012 م.

République Algérienne Démocratique et populaire

Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

Ecole Doctorale en Anthropologie

École Doctorale en Anthropologie

EN PARTENARIAT AVEC :

- L'UNIVERSITÉ D'ORAN –ES-SENIA (UNIVERSITÉ HABILITÉE)
- L'UNIVERSITÉ ABOU-BEKR BELKAID/TLEMCEN
- L'UNIVERSITÉ ABDELHAMID IBN BADIS/ MOSTAGANEM
- L'UNIVERSITÉ MOULOUD MAMMERI /TIZI OUZOU
- L'UNIVERSITÉ ABDERAHMANE MIRA / BEJAIA
- L'UNIVERSITÉ MENTOURI/ CONSTANTINE
- CENTRE NATIONAL DE RECHERCHE EN ANTHROPOLOGIE SOCIALE ET CULTURELLE (CRASC)

ANNÉE UNIVERSITAIRE 2010-2011

الجـ . . ـمهورية الجزائ . ـرية الديمق . راطية الشـ . ـعبية

وزارة التعـ ـيم العالي و البحـ ـث العلـ ـمي

مدرسة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا

École Doctorale d'Anthropologie

بالشراكة مع:

- جامعة السانيا – وهران (الجامعة المؤهلة)
- جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان
- جامعة عبد الحميد ابن باديس- مستغانم
- جامعة مولود معمري- تيزي وزو
- جامعة عبد الرحمان ميرا- بجاية
- جامعة منتوري- قسنطينة
- المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية

السنة الجامعية 2010-2011

تشكّرات

أشكر الأستاذ الفاضل " سعيدي محمّد " على تأطيره هذا العمل وما بذله من جهود حتّى رأى هذا العمل النّور في الدّيباجة الرّائقة الّتي هو عليها، كما أشكر أعضاء لجنة المناقشة المحترمين على ما سيبذلونه من جهد في سبيل قراءة هذا العمل تداركا لما قد يعتريه من هنات وهفوات.

كما أشكر كلّ الّذين ساهموا في إنجاح هذا العمل بما أبدوه من نصائح وتوجيهات، أو ما بذلوه من مراجع ووثائق مهمّة ما كان هذا العمل لولاها ليكون بهذه الحلّة القشيبة.

إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى والداي وأخي وكافّة زملائي وزميلاتي.

الرّموز المستعملة في المذكّرة

◆: يدّل على أهمّية المصطلح المذكور ووجود ما يقابله باللّغة الفرنسيّة في المعجم المخصّص لذلك.

*: يدلّ على وجود شروح وتعليقات هامشيّة.

( ): يحدّد الفقرات المقتبسة من مختلف المراجع الّتي اعتُمِدَ عليها في إنجاز المذكّرة.

[م]: يرمز إلى " المقابلة ".

[ح]: يرمز إلى " الحوار ".

{....} : يرمز إلى كلمات محذوفة.

ملاحظات مهمّة

تجدر الملاحظة إلى أنّنا ذكرنا أنّنا سنعمـــد إلى إجراء مقابلات حصريّة مـــع عائلتين من العائلاتٌ المكوّنة للظّاهرة المدروسة بغية رسم شجرة مبادلاتها القرابيّة، ولكنّنا في نهاية المطاف اقتصرنا على عائلة واحدة لسببين هما:

1- ضيق الوقت، إذ لم يتسنّى لنا معالجة طبيعة مبادلات عائلتين لكون الأمر معقّدا ويستلزم تفرّغا طويل الأمد.

2- ثراء المادّة التوثيقيّة الّتي زوّدنا بها السّيّد " **باي عمر. م** "، الأمر الّذي جعلنا نحصر اهتمامنا بها.

مقدّمة

مقدمة

كثيرة هي التّعريفات الّتي عرّف بها الإنسان، إلاّ أنّ أهمّها يبقى التّعريف الّـذي يرسمه لنـا على أنّه " **حيوان مفكّر** "، أين يتّضح للوهلة الأولى الّتي يطرق فيها مسامعنا هذا التّعريف تأكيده على ازدواجيّة البنية الّتي يتّسم بها هذا الكائن، إذ يجمع في ثنايا وجوده بين عنصر الحيوانيّة الّـذي تشاطره إيّاه سـائر الخلائق عـلى وجه المعمورة، في حين يرتسم نظيره في خاصيّة التّفكير الّتي يمتاز بها عن سائرها.

هذه الازدواجيّة كانت الأساس الّذي قامت عليه تقسيمات قوى الإنسان وملكاته منذ فجر الكينونة البشريّة إلى يومنا هذا، ولعلّ أبعدها صيتا وأعمقها أثرا التّقسيم الّذي تبنّاه كثير من فلاسفة اليونان القـدامى و على رأسهم الحكيم الإلهيّ الكبير " **أفلاطون** "، إذ ذهبـوا إلى القول أنّ الإنسان تتنازع مراميه ثلاث قوى هي " **النّفس الشّهوانيّة**" و " **النّفس الغضبيّة** " و " **النّفس النّاطقة** "، ثمّ عمـدوا إلى القـول أنّ كلاّ من " **النّفس الشّهوانيّة** " و " **النّفس الغضبيّة** " تستقيان وجودهما من معين الطّبيعة الحيوانيّة لديه، عكس " **النّفس النّاطقة** " الّتي تنهل مقوّماتها من كيانه المفكّر.

إنّ جوهر هذا التّقسيم لم يعتريه البلى رغم الأثـواب المختلفة الّتي ارتداها في موكب الفكر الإنسانيّ الطّويل، فحتّى وإن تغيّرت التّسميّات والمصطلحات الّتي استعملت للتّعبير عنه، فإنّ الأفكار الّتي يستبطنها كانت ولا تزال تلك الّتي قال بها الأوائل، غير أنّ الفرق القائم بين ما كان عليه هذا التّقسيم وما هو عليه اليوم يكمن في محورين أساسيين هما " **الكمّ المعرفيّ** " الّذي يفسّر هذه القوى والّذي كان ولا يزال في تضخّم مستمرّ نتيجة اتّساع آفاق العلم وتسارع اكتشافاته، في حين أنّ الثّاني يتجسّد في تقاسم اختصاصات وعلوم متنوّعة عناصر هذا التّقسيم بالبحث والدّراسة كلّ من وجهة نظره ومناهجه الّتي يعتمدها، وإن كانت هذه الاختصاصات لا تعدم الاستفادة ممّا يتوصّل إليه في إحداها، وعليه بناء على ما قلناه نجد أنّ علم البيولوجيا قد جعـل كلاّ من " **النّفس الشّهوانيّة** " و " **النّفس الغضبيّة** " حقلا خصبا لدراساته بعد أن عمد إلى تسميّتهما باسم جامع هو " **الغرائز** " الّتي تعود على اختلاف ضروبها إلى هذين الأصلين، وكذلك نجد أنّ عـلم النّفس عمد هو الآخر

إلى دراستهما بعد أن سمّاهما باسم " **الدّوافع** "، كما عمد إلى دراسة ما يصطلح على تسميّته بـــ " **العمليّات العقليّة العليا** " الّتي إن أسقطناها على لبنات التّقسيم القديم وجدناها تمثّل " **النّفس النّاطقة** "، وعلى هذا تقاس سائر الاختصاصات الأخرى الّتي تتناول هذه القوى والملكات مع وجوب مراعاة الفروق المنهجيّة والنّطاقات البحثيّة الّتي تضفي على كلّ فرع من العلوم خصوصيّته من جهة، وحدود تداخلاته وتفاعـــلاته مع غيره من الفروع من جهة أخرى، ذلك لأنّ هذه العناصر التّركيبيّة لدى الإنسان كانت تدرسها الفلسفة مجتمعة لـــمّا كانت أمّا للعلوم، ولكن لـــمّا لم تعد الفلسفة قـــادرة على إيفائها حقّها من البحث والتّعمّق نتيجة لاتّساع المعارف اتّساعا يعجز معها العقل الواحد عن تناولها مجتمعة، تقاسمتها الاختصاصات المتباينة، وحتّى هذه الاختصاصات تفرّعت هي الأخرى إلى فـــروع أدقّ، وستتفرّع تلك الفـــروع إلى أخر أكثر دقّة وهكذا دواليك، إذ هذه هي سنّة التّطوّر في العلوم.

إنّ النّتائج الّتي توصّل إليها علماء البيولوجيا ونظرائهم علماء النّفس وغيرهم من العلماء المنتمين لاختصاصات أخرى تبيّن أنّ مختلف الغرائز الإنسانيّة الّتي لا تختلف عن نظيرتها لـــدى الأصناف الحيوانيّة الأخرى من ناحية المبدأ، تعتبر أساسا لكلّ ما أبدعه هذا الكائن من منجزات حضاريّة، بيد أنّ هذه المنجزات لم تكن وليدة تلك الغرائز في صورتها الخامّ، بل في صورتها المهذّبة والمصقولة باقتداح الفكر وإعماله، أين فاق الإنســـان الحيوان الأعجم بهذه المزاوجة المتناغمة.

إنّ ما أبدعه الإنسان على توالي الحقب والدّهور هو ما نسمّيه " **الثّقافة** "، الّتي تستمدّ أصولها ممّا هو طبيعيّ، إذ الغرائز المودعة في الإنسان بالفطرة كانت بتظافرها وتآزرها مع العقل البشري المفكّر الرّحم الّذي خرجت منه ضروب وألوان الثّقافة، فغريزة الجوع هي الّتي حملته على تقسيم العمل بينه وبين أبناء جنسه بعد أن انتظم معهم في إطار الجماعة، هذه الجماعة الّتي يستظلّ بحمايتها الفرد نتيجة لكون غريزة الصّراع من أجـــل البقاء لديه مقترنة بإدراكه لعجزه كفرد عن مجابهة الأخطار الّتي تكتنفه في رحاب الطّبيعة هي الّتي حملته على التّكتّل

مع بني جنسه، فكـــان أن استحثّه كـــلّ هذا للسّعي إلى تكييف ما يحيط به مع متطلّباته، أو التّكيّف مع ما يستعصي عليه من المظاهر إن لم تسمح له مؤهّلاته بتطويعها، وثمرة ذلك أنّه عرف طعم الاستقرار و الإعمار، وبناء الدّيار وتشييد الأمصار، وهذا ما عبّر عنه " **ابن خلدون** " باسم " **العمـــران البشريّ** " أين يؤكّد أنّ (الاجتماع الإنسانيّ ضروريّ ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدنيّ بالطّبع، أي لا بدّ من الاجتماع الّذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران، وبيانه أنّ الله سبحانه خلق الإنسان وركّبه على صورة لا يصحّ حياتها وبقائها إلاّ بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله، إلاّ أنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادّة حياته منه، ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا، فلا يحصل إلاّ بعلاج كثير من الطّحن والعجن والطّبخ، وكلّ واحد من هذه الأعمال الثّلاثة يحتاج إلى مـــواعين وآلات لا تتمّ إلاّ بصناعات متعدّدة من حـــدّاد ونجّـــار وفاخوريّ، وهب أنّه يأكله حبّا من غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبّا إلى أعمـــال أخرى أكثر من هذه من الزّراعة والحصاد والدّراس الّذي يخرج الحبّ من غلاف السّنبل، ويحتاج كلّ واحد من هذه آلات متعدّدة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن تفي بذلك كلّه أو ببعضه قدرة الواحد، فلا بدّ من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصـــل بالتّعاون قـــدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كلّ واحد منهم أيضا في الدّفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه لأنّ الله سبحانه لمّا ركّب الطّباع في الحيوانـــات كلّها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانـــات العجم من القدرة أكمل من حظّ الإنسان، فقدرة الفرس أعظم بكثير من قـــدرة الإنسان، وكذا قدرة الحمار والثّور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته، ولمّا كان العدوان طبيعيّا في الحيـــوان جعل لكلّ واحد منها عضوا يختصّ بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره، وجعل للإنسان عوضا من ذلك كلّه الفـــكر واليد، فاليد مهيّئة للصّنائع بخدمة الفكر والصّنائع تحصّل له الآلات الّتي تنوب له عن الجوارح المعدّة في سائر الحيوانـــات

للدّفاع مثل الرّماح الّتي تنوب عن القرون النّاطحة، والسّيوف النّائبة عن المخالب الجارحة والتّراس النّائبة عن البشرات الجاسية، إلى غير ذلك وغيره ممّا ذكره " **جالينوس** " في كتاب " **منافـــع الأعضاء** "، فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيّما المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضا باستعمال الآلات المعدّة للمدافعة لكثرها وكثرة الصّنائع والمواعين المعدّة لها، فلا بـــدّ في ذلك كلّه من التّعاون عليه بأبناء جنسه، وما لم يكن هذا التّعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء و لا تتمّ حياته لما ركّبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له أيضا دفاع عن نفسه لفقدان السّـــلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر، وإذا كان التّعاون حصـــل له القوت للغذاء والسّلاح للمدافعة وتمّت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه، فإذن هذا الاجتماع ضروريّ للنّوع الإنسانيّ وإلاّ لم يكمل وجودهم و ما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إيّاهم) (1).

تجدر الإشارة إلى أنّ كافّة الغـــرائز لدى الإنسان تحكمها نفس القوانين، إذ تتطلّب إشباعا كلّما اعتملت في كيانه، غير أنّ هذا الإشباع خاضع لضوابط تحول دون بهيميّته الجارفة، وعليه إذا كان السّعي لإشباعها أمـــرا طبيعيّا يشترك فيه النّاس كلّهم ما دامت الجبلّة الإنسانيّة واحدة في جوهرها، فإنّ طريقة الإشباع هذه تختلف باختلاف الأعـــراق والأمـــاكن والعصور نظرا لاختلاف العوامل الجغرافيّة والاقتصاديّة والدّينيّة والسّياسيّة وغيرها الّتي يتفاعل معها هؤلاء النّاس تأثيرا وتأثّرا، وبعبارة أخرى فإنّ الجنس البشريّ يعرف تمايزا على صعيد " **الممارسة الثّقافيّة** " لنداء الغريزة.

يجب لفت الانتباه كذلك إلى أنّ هذه الغرائز تتباين من حيث شدّتها، إذ أنّ بعضها يستدعي إشباعا أكثر من غيرها، فغريزة الجوع مثلا تستوجب إشباعا أكبر بكثير من غريزة المدافعة مثلا، ذلك لأنّ الجوع يطرق معدّة

(1) ابن خلدون (عبد الرّحمن)، " المقدّمة "، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، الطّبعة الأولى، 1424هـ-2004م، ص 39.

الإنسان كلّما هضمت وتحلّلت الموادّ الّتي استهلكها من قبل، عكس غريزة المـــدافعة الّتي تستحثّ في ظروف طارئة فقط.

إنّ كلّ غريزة ركّبت في الإنسان لها غاية تسعى لتحقيقها، والمتمثّلة بطريقة أو بأخرى في العمـــل على حفظ الوجود الإنسانيّ، فإذا كانت غريزتي الجوع والمدافعة اللّتان أوردناهما تسعيان لهذه الغاية، فحريّ بنا أن نذكر غريزة أخرى لا تقلّ عنهما أهمّيّة في السّعي لنفس الغاية – هذا دون أن نغفل قدر غرائز أخرى لا يسمح لنا المجال بالاستفاضة في الحديث عنها –، ذلك لأنّ الإنسان من خلالها يضمن استمراريّة النّـــوع البشريّ: إنّها غريزة الجنس ذات الارتباط بصورة جليّة بموضوع بحثنا، هذه الغريزة الّتي تعتبر الحجر الأساس للنّظم القرابيّة الّتي ستكون إحدى عناصرها المجال الّذي سنخوضه بالدّراسة والبحث والتّقصّي.

الفصل الأوّل

مقوّمات البحث المنهجيّة

لقد صوّر لنا جمع من الفلاسفة والمفكّرين، وكثير من العلماء والباحثين الإنسان الأوّل الّذي سمّوه " الإنسان البدائيّ "، على أنّه كان يسير وفق ما تمليه عليه غرائزه، ولكن لمّا انتظم مع بني جنسه في نطاق الجمـــاعة لم يكن هناك (بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طبـــاعهم الحيوانيّة من العدوان والظّلم) (1)، أين نجم عن ذلك نشوء ما سمّاه " **جون جاك روسو** " **" العقد الاجتماعيّ "** ♦ الّذي نظّم علاقات الأفراد بعضهم ببعض بما يضمن مصالحهم جميعا، فكان من بين ما نظّم عن طريق ما أُقِرَّ من أعراف وتقاليد وما سُنَّ من شرائع وقوانين، إشباع الغريزة الجنسيّة الّتي أضحت بتشذيب من الإرث الثّقافيّ على اختلاف تجلّياته ذات خصوصيّات على الصّعيد الإنسانيّ مقارنة بها في بعدها الحيوانيّ، إذ صحيح أنّ الممارسة الجنسيّة في صورتها الفطريّة الشّموليّة تعتبر (ظاهرة بيولوجيّة عن طريقها تقوم كافّة الكائنات الحيّة (البكتيريا، النّباتات، الحيوانات والإنسان) بالتّناسل والتّكاثر، وليس للإنسان أن يفلت من قبضة قوانين قاعدة الحياة هذه، إلاّ أنّنا نرى أنّ هذه القاعدة على مستواه تتّسم بالتّعقيد نتيجة تدخّل مجموعة من العوامل الخاصّـــة به ذات الطّبيعة النّفسيّة، الاجتماعيّة، الثّقافيّة ، الدّينيّة...) (2)، لـــذا فإنّ (السّلوك الجنسيّ لديه

---

(1) ابن خلدون (عبد الرّحمن)، " المقدّمة "، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، الطّبعة الأولى، 1424هـ-2004م، ص40.

(2) Dr/ Ahmed Aroua, « L'Islam et la morale des sexes », Office Des Publications Universitaires, Alger-Algérie, 1998, pp 17.

يختلف اختلافا عميقا عن نظيره لـدى الحيوان، ذلك لأنّه على مستواه قد حوّر بفعل اللّغة كأداة تواصليّة، علاوة على خصوبة حياة هذا الكائن العقليّة و سعة خياله، إلى جانب تأثير المضمون الاجتماعيّ- الثّقافيّ بما يستبطنه من معايير جماليّة وأخلاقيّة) (1)، الأمر الّذي أكسب ممارسته الجنسيّة بعدا تنظيميّا لا يخوّله إشبـاع غريزته تلك إلاّ في إطار الزّواج الّذي يعتبر (نظامـا اجتماعيّا قانونيّا تتمثّل فيه بنية الجمـاعة وتتجلّى فيه طبائعها وخصائصها، وهو يخضع في نشوئه لتقاليد وأعـراف ترتبط بعقيدة الجمـاعة وسلوكها الاجتماعيّ والأخلاقيّ) (2)، وهذا معناه أنّ الزّواج أبعد من أن يكون مجرّد عقد يباح بموجبه لشخصين مختلفي الجنس معاشرة بعضهما البعض كما يوحي بذلك ظاهره، بل هو نظام معقّد تتقاطع في ثناياه الآمال والمصالح وتغذّيه الرّهانات والمطامح كون نتائجه المترتّبة عنه لا تمسّ الزّوجين فقط، بـل تتعدّاهما لتشمل أسرتيهما وأقربائهما ومحيطهما الاجتماعيّ، وعليه فهو لا يشكّل سوى وحـدة صغيرة منتظمة في نطـاق أوسع وأشمل تتداخل وتتفاعل فيه جملة من الوحـدات تداخلا وتفاعلا تبادليّا أين تؤثّر وتتأثّر كـلّ وحدة بنظيراتها مشكّلة بذلك نظاما معقّـدا يسمّيه علماء الاجتماع والأنثروبولوجيّون بـ " **نظام القرابة** "◆، الّذي يستبطن علاوة على الزّواج كلا من الاستراتيجيّات القرابيّة، ونظام المحـارم، ونظام الميراث، والأنسـاب وغيرها من الأمور الّتي تتّصل بها سواء على صعيد التّصوّرات أو على صعيد الممارسات.

في معرض ذكرنا لنظام القرابة، واستنادا إلى رؤية التّوجّه البنيويّ (الّذي يعتبر أنّ المجتمع يتكوّن من مجموعة

---

(1) ensemble d'auteurs, « Traité de la psychologie expérimentale », Tome III, Presses universitaire de France, Paris-France, 2 édition, 1973, pp 235.

(2) د/ عبد السّلام التّرمانيني، " الزّواج عند العرب في الجاهليّة الإسلام (دراسة مقارنة) "، سلسلة " عالم المعرفة "، العدد 80، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، الكويت- الكويت، بدون طبعة، 1998م، ص11.

من الأفراد والجماعات الّتي تتواصل بينها، وأنّ تواصلها يتجلّى في ثـلاثة أشكـال ومستويات: الأوّل متعلّق بنظام القرابة أين يتمّ التّواصل عن طريق النّساء، والثّاني مرتبط بالنّظام الاقتصـاديّ وفيه يتحسّد التّواصل عن طريق تبادل الموادّ والخدمات، في حين أنّ الثّالث يتمظهر في النّظام اللّغويّ الّذي يعتبر تواصـلا يتمّ فيه تبادل المعلومـات) (1)، يمكن القول، اعتمـادا على القياس، أنّه مثلما توجد أنظمة لغويّة واقتصاديّة متعدّدة تعدّد الأصقاع والأعـراق، توجد كـذلك أنظمة قرابة متنوّعة تخضع في بنيتها وديناميكيّتها لمقتضيات البيئة الّتي تحتضنها، وقد لُمِسَ هذا التّنوّع بوضوح عندما درس علماء الاجتماع والأنثروبولـوجيّون الأسرة كمؤسّسة اجتماعيّة في مناطـق متباينة من المعمورة، فكـان من أهمّ ما توصّلوا إليه هو أنّه (من بين كلّ المؤسّسات الاجتماعيّة، تعتبر معارفنا المتعلّقة بالأسرة الأقلّ وضوحا والأقلّ دقّة فيما يتّصل بأصـول نشأتها، وهذا دون شـكّ لكونها تبدو مؤسّسة ذات تركيبة بسيطة لا يرتجى من ورائها سـوى التّكوين والمحـافظة على بنية المجتمعات، ومعظم النّاس ينظرون إليها على أنّها وحـدة ثابتة لم تتغيّر على مرّ العصـور) (2)، بَيْدَ أنّ أهل الاختصـاص يذهبون غير هـذا المذهب، إذ (على العكس من ذلك، فإنّ السّوسيولوجيّين و الإثنوغرافيّين، الّذين تابعوا مسار تطوّرها على مرّ الزّمن والّذين يعرفون عدد العناصـر – الغير ثابتة دائما – الّتي تدخل في تركيبها، يتناولونها كشيء معقّد تقمّص العديد من الأشكال، وقد تباينت أدوارها من حيث الاتّساع والأهمّيّة مقارنة بالمجتمع الّذي تدرس فيه) (3)، ذلك لأنّ الـدّور الّذي كانت تلعبه الأسرة في المجتمعـات القديمة التّقليديّة كان أعمق أثرا وأوسع مجـالا ممّا هو عليه اليوم، باعتبار أنّ الـدّولة قد سلبت الأسرة الكثير من وظائفها في عصرنا الحالي.

---

(1) « Les notions clés de l'ethnologie », Armand Colin / Masson, Paris- France, 1998, pp 148-149.

(2) Encyclopédie « L'évolution humaine : des origines a nos jours », Aristide Quillet, Paris – France, 1951, Tome II, pp 235.

(3) Ibid.

إنّ الفكرة الجوهريّة الّتي أودعناها الفقرة السّـابقة تتمثّل في كون الأسـرة الّتي تعتبر عمـاد أيّ نظام قرابة، قد تقلّبت أحوالها وتبدّلت أوصافها تبعا للظّروف واستجابة للمؤثّرات المحيطة بالمجتمعات سواء الكبيرة منها أو الصّغيرة، المحتكّة بغيرها أو المنعزلة، وأنّ هذا التّبدّل والتّطوّر كـان لدى البعض سريعا، و لم يكن كذلك لدى الآخرين، وعليه نستشفّ وجود أنماط مختلفة من الأسر، وبالتّالي أنماطا متباينة من الأنظمة القرابيّة، أين كانت البنية القرابيّة الطّوطميّة حسب " **دوركايم** " أقـدمها، في حين أنّ آخرها هو النّموذج القرابيّ الغربيّ الحديث الّذي تعتبر الأسرة النّواتيّة ركيزته الأساسيّة.

وكما هو مقرّر لدى الأنثروبولوجيّين فإنّ أيّ نظام قرابيّ يخضع في استمراريّته لمجموعة من المعايير والقيم الّتي تعرف لديهم باسم " **الاستراتيجيّات القرابيّة** " ◆ ، أين تضمن بواسطتها كلّ جماعة إعـادة إنتاج موروثها الثّقافيّ والمحافظة على هويّتها الإنتمائيّة من خـلال شحن تصـوّرات أفرادها وسلوكاتهم بزخم من الدّلالات الرّمزيّة، الأمر الّذي دفع " **دوركايم** " إلى القـول أنّ (الرّمز هو الّـذي يفرز الظّاهرة الاجتمـاعيّة وليس العكس) (1)، وتمثل قوله قال " **كلود ليفي ستراوس** " وسـائر البنيويّين الّذين يؤكّدون أنّ (القرابة المبنيّة على أساس الزّيجات ثقافيّة وليست بيولوجيّة، إنّها تعتمد نسقا تباديليّا تُتَبَادَلُ فيه النّساء، ولكنّه يتضمّن كذلك تبادل الرّموز في إطار منطق تواصل اجتماعيّ يشبه في بنيته اللّغة،....، بعبارة أخرى بالنّسبة إلى " **كلود ليفي ستراوس** "، المؤسّسة الرّمزيّة تسبق العلاقـات الاجتماعيّة وبالتّالي فالمعنى يتصدّر النّسق مقارنة بالتّفاعل، إنّه هو من يقنّن المبادلات التّواصليّة) (2).

1- إشكاليّة الدّراسة:

وعليه لمّا كانت الاستراتيجيّات القرابيّة ذات أهمّيّة في تحـديد ملامح أيّ جماعة بشريّة ارتأينا أن نجعل منها

(1) Encyclopédie « L'évolution humaine : des origines a nos jours », Aristide Quillet, Paris – France, 1951, Tome II, pp 235.

(2) Michel Bergès, « Claude Lévi-Strauss et les réseaux : parenté et politique », UQAC, Canada, 2008, pp18.

نطاقا لبحثنا الميدانيّ، من خلال استكناه أبعادها لـــدى مجموعة من العـــائلات التّلمسانيّة، فكان أن طرحنا مجموعة من التّساؤلات الّتي يشكّل مجموعها إشكاليّة موضـــوعنا، باعتبار أنّ كلّ تساؤل منها يعتبر لبنة من لبنات بناء النّطاق الإشكاليّ للموضوع الّذي سنعالجه.

تجدر الإشارة إلى أنّنا عمدنا إلى ترتيب هذه التّســـاؤلات ترتيبا منطقيّا بحيث تكون الإجابة عن إحداها نقطة اقتداح فتيل التّســـاؤل الّذي يعقبه، أين تكون اللّحمة الّتي تترتّب عن مجمـــوع الإجابات تلك، الإجابة عن الإشكاليّة العامّة لموضوعنا، وعليه فقد جاءت تساؤلاتنا على النّحو التّالي:

أوّلا: ما هي الأصول العرقيّة الّتي تنحدر منها هذه العائلات ؟

ثانيا: ما الّذي يدفع هذه العائلات إلى حصر مبادلاتها القرابيّة فيما بينها ؟ بعبارة أخرى ما هي الرّهانات المرجوّة جراء المحافظة على إعادة الإنتاج المنهجة لهذه الصّلات القرابيّة ؟

ثالثا: هل عرفت استراتيجيّات الحصر هذه تغيّرا في أوساط الجيل الجديد ؟ وكيف يتمظهر هذا التّغيّر إن وجد ؟

2- فرضيّات الدّراسة:

وقد لجأنا عقبها إلى تبنّي مجموعة من الفرضيّات اتّخذناها إجـــابات مبدئيّة مؤقّتة عن هذه التّساؤلات، وليس من سبيل إلى إقرارها أو تفنيدها إلاّ الرّجوع لما ستزوّدنا به الدّراسة الميدانيّة من نتائج ومعطيات، ومن هنا فإنّ فرضيّاتنا تتمثّل فيما يلي:

أ/ فيما يتعلّق بالأصول العرقيّة لهذه العائلات، افترضنا أنّها تنحدر كلّها من العنصر التّركيّ الّذي ركّز نشاطه الاستيطانيّ في " **تلمسان** " المدينة دون أحوازها منذ دخول المنطقة تحت سلطة الدّولة العثمانيّة، هذا النّشاط

الّـــذي شهدته كافّة مدن الشّمـــال الإفريقيّ- عدا مدن المغرب الأقصى -، والّذي كان خاضعا لإملاءات جيو- استراتيجيّة تتعلّق بمصالح تلك الدّولة- الخلافة.

ب/ أمّا فرضيّتنا المرتبطة بأسباب حصر تلك العائلات للمبادلات القرابيّة فيما بينها، فقد أرجعناها إلى كون تلك العائلات تسعى من خلال حصرها لمبادلاتها تلك إلى المحافظة على ما يعتبره أفرادها " **صفاء عرقيّا** "◆.

ج/ في حين أنّنا افترضنا فيما يتّصل بالتّســـاؤل الأخير أنّه لم يطرأ على الاستراتيجيّات القرابيّة النّطاقيّة – إن جاز أن نسمّيها كذلك – أيّ تغيّر لدى الجيل الجـــديد، فهي لا تزال مماثلة لتلك الّتي كانت متبنّاة من قِبَلِ الآباء والأجداد، ذلك لكونها عبارة عن برمجة نفسيّة مشبعة بإرث ثقافيّ كبير يمتدّ في الزّمن قرونا، وبالتّالي فإنّها تتّسم بالرّسوخ والثّبات.

3- أسباب اختيار هذا الموضوع:

إنّ تحـــديدنا للإشكاليّة والفرضيّات الّتي توجّه مبدئيّا مســـارنا البحثيّ يستتبعهما منهجيّا ذكر الأسباب الّتي كانت وراء اختيارنا لهذا الموضوع، والّتي يمكن إجمالها في النّقاط التّالية:

أوّلا : مسألة الانتماء، أين يمكن القول أنّه من منطلق انحدارنا مـــن إحدى العائلات المكوّنة لنطاق المبادلات القرابيّة هذه، ونظرا لكـــون الأنثروبولوجيّين اليوم ما عـــادوا يصبّون اهتمامهم على دراسة الآخر فقط، بل أصبحوا يولون اهتماما متزايدا لمجتمعاتهم الّتي ينتسبون إليها أصلا، فإنّنا ارتأينا أنّه من الأولى أن نعمد إلى دراســـة مجتمعنا الأقرب قبل أن نخوض في التّعامل مع المجتمعات الأخرى، ذلك لأنّ انتمائنا للجماعة الّتي سندرسها يعتبر مبدئيّا مدعاة لكسب ثقة أفرادها، وبالتّالي منفذا نلج به هذه الظّاهرة.

ثانيا: كون الدّراسات المرتبطة بالمسألة القرابيّة تعتبر النّواة المركزيّة للدّراسات الأنثروبولوجيّة، وعليه من باب

السّعي إلى التّخصّص في هذا المجال اقترحنا معالجة هذا الموضوع ودراسته، لكون الدّراسات من هذا القبيل لا تزال قليلة لا ترقى إلى مستوى ثراء الجزائر كحقل بحثيّ مقارنة بتلك الّتي أجريت في مناطق مختلفة من العالم، و حتّى لا نذهب بعيدا يكفي للتّدليل على ذلك مقارنتها بنظيرتها الّتي تناولت هذه المسألة بالمملكة المغربيّة.

ثالثا: يعتبر هذا الموضـــوع من بين المـــواضيع الّتي تثير حساسيّة لدى النّاس، ولـــمّا كان الكثير من الباحثين يُحْجِمُونَ عن التّطرّق لمثل هذه المواضيع رغم أنّها تعكس أفضل من غيرها الـــواقع الاجتماعيّ بكلّ ما يحمله من تناقضات هي في كثير من الأحيان أسّ علّته ومصدر اختلالاته، مؤثرين مـــواضيع أخرى قد لا تمتّ لهذا الواقع إلاّ بصلات عابرة لا تمسّ عمقه ولا تشرّحه تشريحا يسمح بتلافي وتفادي ما قد يطرأ عليه من مصائب وانحرافات، ومن منطلق الاعتقاد الجازم أنّ الباحث لن يكون جديرا بهذا اللّقب ما لم يجرأ على هزّ أوتار هذه الحساسيّات حتّى يسمع نغمة الحقـــائق الاجتماعيّة كما هي، فإنّ عزمنا قد انعقد على هزّ إحدى هذه الحساسيّات من خلال موضوعنا هذا على أمـــل أن يكون ذلك محفّزا لغيرنا على فعـــل مثل ذلك مع حساسيّات أخرى من خـــلال إشكاليّات جريئة تكسر الطّابوهات الّتي غلّفت بها الكثير من الظّـــواهر الاجتماعيّة.

رابعا: نتيجة لكون مـــدينة " **تلمسان** " قد شهدت تغيّرا كبيرا على صعيد بنيتها الدّيمغرافيّة نتيجة عـــوامل مختلفة، فإنّنا أردنا أن ندرس كيفيّة تعامل المجتمع التّلمسانيّ الأصليّ – إن جاز لنا أن نسمّيه كذلك – مع هذا التّغيّر، فجعلنا من استراتيجيّاته القرابيّة مدخلا لكونها - في رأينا – البوّرة الّتي تعكس أكثر من غيرها طبيعة التّغيّرات الاجتماعيّة لأيّ جماعة بشريّة، باعتبارها البوّرة الّتي تتّسم مقارنة بغيرها من قطاعات المجتمع بخاصيّة الثّبات الطّويل الأمد ومقاومة التّغيير، وعليه من خـــلال معالجتها وتحديد طبيعة تفاعـــلاتها مع المستجدّات الطّارئة عليها يمكن التّنبّؤ بـــ " **الصّيرورة الاجتماعيّة** "◆ في أبعد أعماقها.

هذه عموما الأسباب الّتي كانت وراء اختيارنا دراسة هذا الموضوع.

4- أهداف دراسة هذا الموضوع:

ليس خاف أنّه كما تتوفّر الدّراسة على أسباب تحرّكها فإنّها تنشد تحقيق مجموعة من الأهداف وبلوغ غايات معيّنة، أين يمكن القول أنّها في حالتنا تتمثّل في:

أ/ معرفة ما إذا كان هناك تناغم عرقيّ يغـــذّي هذه الاستراتيجيّات القرابيّة، وإلاّ فإنّ الأمر سيصبح ذو دلالة أبعد من أن تكون " **إثنيّة** "، وبالتّالي يغدو تحليلها وفق إطار نظريّ يتعدّى تفسير هذه الظّاهرة الاجتماعيّة من منطلق إرجاعها حصريّا لتصوّر عرقيّ أمرا لا مفرّ منه، ممّا يعني تحليلا أعمق لها.

ب/ محاولة استجـــلاء الطّريقة الّتي يتمّ بها اختيار شـــريك الحياة الزّوجيّة لدى أفراد هذه العائلات، والمعايير المتبنّاة في تجسيد هذا الاختيار، وما إذا كان هناك تنـــاغم بين التّوجّهات الفرديّة والتّطلّعات العائليّة في مسألة الاختيار هذه.

ج/ السّعي إلى رصد ما إذا كانت هناك تغيّرات على مستوى البنيات القرابيّة لدى هذه العائلات، وذلك من خلال المقارنة بين تمثّلاتها وواقعها لدى ثلاثة أجيال: الأجداد، الآباء، الأبناء من جهة، ولدى كلّ من الذّكور والإناث من جهة أخرى.

من خلال ذكرنا لأهداف الدّراسة هذه نستشفّ أنّها تصبّ في إطار معرفة ما إذا كان هناك تغيّر على صعيد البنية القرابيّة لدى هذه العائلات، والكيفيّة الّتي يتجسّد بها هذا التّغير علاوة على كيفيّة تعامل هذه العائلات معه في حـــالة ما إذا كان موجودا، وبالتّالي فإنّ دراستنا مرتبطة بالحقل البحثيّ الّذي غالبا ما يصطلح على تسميّته " **تغيّرات الرّابط الاجتماعيّ** "◆والّذي هو في دراستنا هذه " **الرّابط القرابيّ** "◆.

السّعي إلى التّخصّص في هذا المجال اقترحنا معالجة هذا الموضوع ودراسته، لكون الدّراسات من هذا القبيل لا تزال قليلة لا ترقى إلى مستوى ثراء الجزائر كحقل بحثيّ مقارنة بتلك الّتي أجريت في مناطق مختلفة من العالم، و حتّى لا نذهب بعيدا يكفي للتّدليل على ذلك مقارنتها بنظيرتها الّتي تناولت هذه المسألة بالمملكة المغربيّة.

ثالثا: يعتبر هذا الموضـــوع من بين المـــواضيع الّتي تثير حساسيّة لدى النّاس، ولـــمّا كان الكثير من الباحثين يُحْجِمُونَ عن التّطرّق لمثل هذه المواضيع رغم أنّها تعكس أفضل من غيرها الـــواقع الاجتماعيّ بكلّ ما يحمله من تناقضات هي في كثير من الأحيان أسّ علّته ومصدر اختلالاته، مؤثرين مـــواضيع أخرى قد لا تمتّ لهذا الواقع إلاّ بصلات عابرة لا تمسّ عمقه ولا تشرّحه تشريحا يسمح بتلافي وتفادي ما قد يطرأ عليه من مصائب وانحرافات، ومن منطلق الاعتقاد الجازم أنّ الباحث لن يكون جديرا بهذا اللّقب ما لم يجرأ على هزّ أوتار هذه الحساسيّات حتّى يسمع نغمة الحقـــائق الاجتماعيّة كما هي، فإنّ عزمنا قد انعقد على هزّ إحدى هذه الحساسيّات من خلال موضوعنا هذا على أمـــل أن يكون ذلك محفّزا لغيرنا على فعـــل مثل ذلك مع حساسيّات أخرى من خـــلال إشكاليّات جريئة تكسر الطّابوهات الّتي غلّفت بها الكثير من الظّـــواهر الاجتماعيّة.

رابعا: نتيجة لكون مـــدينة " **تلمسان** " قد شهدت تغيّرا كبيرا على صعيد بنيتها الدّيمغرافيّة نتيجة عـــوامل مختلفة، فإنّنا أردنا أن ندرس كيفيّة تعامل المجتمع التّلمسانيّ الأصليّ – إن جاز لنا أن نسمّيه كذلك – مع هذا التّغيّر، فجعلنا من استراتيجيّاته القرابيّة مدخلا لكونها - في رأينا – البؤرة الّتي تعكس أكثر من غيرها طبيعة التّغيّرات الاجتماعيّة لأيّ جماعة بشريّة، باعتبارها البؤرة الّتي تتّسم مقارنة بغيرها من قطاعات المجتمع بخاصّيّة الثّبات الطّويل الأمد ومقاومة التّغيير، وعليه من خـــلال معالجتها وتحديد طبيعة تفاعـــلاتها مع المستجدّات الطّارئة عليها يمكن التّنبّو بـــ " **الصّيرورة الاجتماعيّة** "◆ في أبعد أعماقها.

هذه عموما الأسباب الّتي كانت وراء اختيارنا دراسة هذا الموضوع.

5- المقاربة المنهجيّة للموضوع وأدوات البحث الميدانيّ:

لكي يكون عملنا خاضعا لمقاييس البحث العلميّ فإنّ الأخذ بإطار منهجيّ يضع خطوات البحث وأساليب الوصول إلى المعلومة وتنسيقها مع غيرها من المعلومات بما يضمن انسجام وحدات هذا العمل أمر لا بدّ منه، ذلك لما للمنهج من أهمّيّة في تحديد القيمة والمساهمة العلميّة لأيّة دراسة من الدّراسات في أيّ اختصاص من الاختصاصات الأكاديميّة، وعليه فإنّنا في إنجازنا لعملنا هذا سنعتمد " **المقاربة المنهجيّة التّكامليّة** "♦ الّتي ترتكز على توظيف الكتابات السّابقة في اختصاصات شتّى ترتبط بطريقة أو بأخرى بموضوع البحث، لكي يتيح لنا ذلك فهما أوسع للتّراكمات التّاريخيّة للظّاهرة المراد دراستها، والانطلاق منها إلى الدّراسة الوصفيّة لهذه الظّاهرة في الوقت الرّاهن، ومحاولة تحليلها بعد جمع المعطيات المتعلّقة بها باستعمال وسائل البحث الّتي يراها الباحث مناسبة لضبط المتغيّرات الّتي تدخل في هيكلة الظّاهرة الّتي يدرسها، ومن ثمّ اللّجوء إلى مقارنتها بنظيراتها في المجتمعات الأخرى بغية استخلاص القواعد العامّة للسّلوك الإنسانيّ.

ولتجسيد هذا العمل على أرض الواقع فإنّنا سنعتمد على مجموعة من أدوات البحث الميدانيّ، الّتي نصل بواسطتها إلى المعلومات الخامّ المتعلّقة بموضوعنا أين سنعمد عقبها إلى وضعها في إطار نظريّ يحقّق تناغما بين وحداتها ويعطيها دلالة معرفيّة تسمح لنا بقراءة الظّاهرة علميّا، والّتي تتمثّل فيما يلي:

1/ الاستبيان: أين سنعمد إلى توظيفه لاستخلاص معلومات مبدئيّة من خلالها نرسم استراتيجيّة عملنا الميدانيّ، وعليه فهذا الاستبيان يعتبر خطوة استطلاعيّة لمجالنا البحثيّ.

2/ المقابلات: والّتي سنجريها مع أفراد ينتمون للعائلات المكوّنة لنطاق المبادلات القرابيّة المراد دراسته، ولكن لّما كان عددها كبيرا وليس في متناول أيدينا إجراء مقابلات مع كلّ أفراد هذا المجتمع، فإنّ عيّنة منه ستكون كافية لمعرفة التّوجّهات العامّة لمجموع هذه العائلات، وسيكون أفراد هذه العيّنة من أعمار مختلفة ومن كلا الجنسين حتّى نتحسّس ما إذا كان هناك تغيّر على صعيد استراتيجيّاته القرابيّة.

كذلك سنعمد إلى إجراء مقابلات حصريّة مع أفراد أسرتين من هذه الأسر من خلالها نرسم شبكة مبادلاتها القرابيّة لأجيالها المختلفة والّتي ستكون ذات قيمة في سبر أغوار الواقع المبادلاتيّ للمجتمع المدروس، أين سنلجأ إلى مقارنتها بمعطيات المقابلات العامّة لاستخلاص المفارقات بين الخطاب العامّ للأفراد والواقع الخاصّ لبعض أفراده المنتمين له.

3/ الأرشيف: الّذي سنعوّل عليه في المقارنة بين الخطاب العاميّ والتّوثيق الإداريّ، وبالتّالي استخلاص المزيد من المعلومات الّتي سنستغلّها في البناء التّحليليّ لأبعاد هذه الظّاهرة.

6/ المعجم الاصطلاحيّ للدّراسة الميدانيّة:

حتّى ترتسم معالم هذا العمل بصورة لا لبس فيها يجب أن يستند إلى معجم بحثيّ ركائزه المصطلحات المفتاحيّة الّتي سيوظّفها الباحث، والّتي تعتبر محدّدات ضروريّة تعكس النّطاق الفعليّ لمجال الدّراسة، وبالتّالي فإنّ المصطلحات المفتاحيّة الّتي عليها مدار بحثنا هذا تتمثّل فيما يلي:

أوّلا/ الاستراتيجيّات القرابيّة: " الإستراتيجيّة " كلمة إغريقيّة معرّبة ترجع أصولها الدّلاليّة إلى القاموس الحربيّ لهذه الأمّة، وقد عمدت علوم كثيرة إلى تبنّيها كمصطلح بحثيّ، أين نجدها في الرّياضيّات وعلم الاقتصاد (1) وكذا في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرها من الفروع العلميّة الأخرى، وهي تدلّ في أوسع استعمالاتها على (مهارة تنسيق مجموعة من الخطوات والنّشاطات بغية تحقيق هدف أو مجموعة من الأهداف) (2)، وعليه استنادا لما أوردناه فإنّ توظيفنا لمصطلح " **الاستراتيجيّات القرابيّة** " سيكون على أساس أنّها **الخطوات المنتهجة من قبل مجموعة من العائلات، الهدف منها هو حفاظها على تناغمها وتوازن مورفولوجيّتها البشريّة والاجتماعيّة من خلال تبنّيها سياسة المبادلات القرابيّة المحدّدة عرفيّا، والمتعارف عليها بين أفرادها.**

---

(1) Encyclopédie UNIVERSALIS, Paris- France, 2002, Tome 21, pp 655.

(2) Grand Larousse Universel, Larousse- Bordas, Milan-Italie, 1997, Vol 14, pp 9826.

ثانيا/ العائلات التّلمسانيّة: هي عبارة عن مجموعة من العائلات الّتي تستقي شرعيّة انتمائها إلى هذه المدينة من خلال لقبها العائليّ، فكأنّ هذا اللّقب معناه بالضّرورة الانتماء لهذه المدينة، وهذه الألقاب معروفة لدى أفراد هذه العائلات وإليها يحتكمون، فإذا ادّعى أحد أنّه تلمسانيّ صميم فإنّ لقبه العائليّ سيكون محكّ صدقه أو عدمه، وهذه الألقاب تعتبر حجر الأساس الّذي إليه يرجعون إذا ما أراد أحدهم الزّواج، وبالتّالي فإنّ اختيار أو قبول شريك الحياة الزّوجيّة يبنى على أساس حمله إحدى هذه الألقاب.

في حين أنّ ما سيرسم ملامح وحدود التّجسيد الفعليّ لمختلف أبعاد هذين المصطلحين المفتاحيّين هو البعد الإجرائيّ الّذي يستبطنه كلّ من مفهومي **اختيار شريك الحياة الزّوجيّة والرّهانات المعقودة على هذا الاختيار.**

وحتّى نضع حدودا فاصلة يتبيّن منها ما هو **مصطلح مفتاحيّ** ممّا هو **مفهوم إجرائيّ**، لا بدّ أن نؤكّد أنّ المصطلحات المفتاحيّة تستقي وزنها العلميّ من الرّصيد النّظريّ الّذي يدمجها في سياق البحث، في حين أنّ المفاهيم الإجرائيّة تعتبر من خلال قابليّتها للممارسة البحثيّة التّطبيقيّة ميدانيّا مصدرا من مصادر التّنظير، وبالتّالي فإنّ المصطلحات المفتاحيّة للبحث تستمدّ منها جزء كبيرا من فاعليّتها العلميّة، وبينهما تداخل وثيق فيما يتعلّق ببناء وهيكلة مختلف جوانب العمل البحثيّ.

الفصل الثّاني

الجغرافيا والتّاريخ وميلاد مخيال جماعيّ

1- أهمّيّة البعد الجغرافي في الدّراسات الأنثروبولوجيّة:

من المسلّم به في كافّة المجالات البحثيّة أنّ أيّ عمل علميّ لا يتأتّى لصاحبه إنجازه إلاّ إذا راعى جملة من القواعد المحكمة وسار على إيقاع ثلّة من المبادئ الّتي يسعى من خلالها إلى إماطة برقع الغموض عن الدّراسة الّتي يتناولها بالبحث والتّقصّي، أين نجد من بينها تحديد البعد الجغرافيّ الّذي تعتمل في نطاقه الظّاهرة المدروسة، هذا البعد الّذي يعتبر قطعة صغيرة من الفسيفساء الّتي على الباحث الأنثروبولوجيّ أن يوليها حقّها من الاهتمام ليتسنّى له رسم لوحة بحثيّة أكثر شموليّة وأرحب أفقا قدر المستطاع، خصوصا بعد أن تبيّن اليوم ميل جلّ الباحثين (إلى الرّبط بين أساليب الحياة و بين بيئات معيّنة على أنّها متوقّفة عليها) (1)، ذلك لأنّه حسب كثير من الباحثين الّذين نورد من بينهم " **إيلين سمبل** " (لن نستطيع أن ندرس الإنسان دراسة علميّة وهو منفصـــل عن الأرض الّتي يفلحها أو الّتي يدبّ عليها، أو البحر الّذي تمخر عبابه سفنه، تماما مثلما لا نستطيع أن ندرس الدّبّ القطبيّ منفصـــلا عن البيئة القطبيّة أو الصّبّـــار الصّحراويّ بعيدا عن الصّحراء وجدبها) (2).

إنّ فكرة وجود علاقة تفاعليّة يرتسم من خـــلالها السّلوك الإنسانيّ في بعض جوانبه على ضوء إيقاع البيئة الّتي يعيش في أحضانها هذا الكائن فكرة قديمة، وردت بذورها الأولى لدى علماء وفلاسفة الإغريق القدامى كالطّبيب " **أبقراط** " والفيلسوف " **أرسطو** "، وكلّ من العالمين " **جالينوس** " و " **بطليموس** "، وقد تبنّاها كثير من علماء المسلمين وتوسّعوا في الاستدلال عليها، ولعلّ من أجود استدلالاتهم وأبينها ما أورده العلاّمة

---

(1) لوسيـــان فيفر، " الأرض و التطوّر البشريّ "، ترجمة الدّكتور جمعة السّيّد خلاّف، دار المطبوعات الجديدة: الإسكندريّة – مصر، الطّبعة الثّانية، 1973م، ص 21.

(2) المرجع السّابق، ص 2 – 3.

" ابن خلدون " في مقدّمته الشّهيرة في معرض حديثه عن الأقـــاليم وسماتها وأحـــوال قاطنيها، وقد تابعت الأفكار المرتبطة بهذه النّظرة تطوّرها في العصور الّتي تلت ذلك مع ما يقتضيه التّطوّر من الإضافة والتّحوير تبعا لمستلزمات كلّ عصر، فقد وردت في كتابات كلّ من " **مونتاني** " و " **مونتسكيو** "، ولا يزال معمولا بها كمبدأ من أوثق المبادئ في الجغرافيا المعاصرة.

إنّ الجغرافيّين هم أفضل معين يستند إليه الأنثروبولوجيّ في استجلاء أهمّيّة المعطى المكانيّ ابتغاء فهم الظّاهرة، فهما يسير معه أغوارها العميقة، حتّى وإن كان بعضهم يغالي في تقدير هذا المعطى لدرجة اعتباره المحرّك المطلق للسّلوك الإنسانيّ من أبسط أشكاله إلى أعقدها، تماما كما زعم " **كوزان** " حين ادّعى مقدرته على رسم مخطّط النّشاط الإنسانيّ بما يستبطنه من أبعاد بمجرّد الرّجوع إلى ضرب البيئة الّتي تكتنفه معالمها، إذ نجده يصرّح في هذا السّياق : " امنحوني مكوّناتها الطّبيعيّة، غطاءها النّباتيّ، تركيبتها الحيوانيّة، وسأتكفّل بأن أقول لكم ما الّذي سيكون عليه إنسان هذا البلد، وأيّ دور سيضطلع به في التّاريخ، ليس بصورة تقريبيّة وإنّما برؤية حتميّة، ليس في حقبة من الحقب، بل في كلّها " (1)، بيد أنّنا لن نأخذ بالنّظرة الحتميّة هذه الّتي يعتنقها " **راتزل** " وأشياعه أمثال " **كوزان** " السّالف الذّكر، لما فيها من المبالغة وغمط لليونة الإنســـان ومقدرته الفريدة على التّكيّف، بل وحتّى السّيطرة في أحايين كثيرة على ما يحيط به وتسخيره لمتطلّباته، لذا سنتبنّى طرح المدرسة الفرنسيّة الّتي يعتبر " **فيدال دي لابلاش** " رائدها، أين نجد خطوطها العريضة مرسومة في قوله : " يجب أن يساهم التّحليل الجغرافيّ إلى جانب المؤثّرات الأخلاقيّة والتّاريخيّة بنصيب في تفسير الظّواهر، أمّا استقلال إحدى الطّرق بتفسيرها فإنّه لا يمكن أن يرضي عقلا أوقف نفسه على البحث عن الحقيقة و لم يسخّر نفسه لطريقة من طرق البحث " (2)، وفي قول آخر له : " يجب أن ننطلق من فكرة

---

(1) Encyclopédie « L'évolution humaine : des origines a nos jours », Quillet éditeur, 1951, Tome I, pp 40.

(2) لوسيان فيفر، " الأرض والتّطوّر البشريّ "، ترجمة د/ محمّد السّيّد غلاّب، دار المطبوعات الجديدة: الإسكندريّة – مصر، ط 2، 1973م، ص 21.

أنّ البقعة عبارة عن خزّان يستبطن طاقات نائمة أودعت فيه الطّبيعة بذورها، إلاّ أنّ كيفيّة استغلالها متوقّفة على الإنسان "، والّتي نستشفّ تقاطع رؤيتها مع رؤية علمـــاء الاجتماع الفرنسيّين، أين يعتبر " دوركايم " أبرزهم، والّذي آخذ " رانزل " وتلامذته على مغالاتهم في تضخيم أهمّيّة البعـــد المكانيّ على حساب أبعاد أخرى في تفسيرهم للسّلوك الإنسانيّ ومدى مساهمتها في إفراز مختلف الظّواهر (1).

من خلال ما سلف إيراده تتّضح لنا الأهمّيّة الّتي يحتلّها التّحديد الجغرافيّ للظّاهرة المـــدروسة، هذه الأهمّيّة الّتي راعاها بطريقة أو بأخرى كلّ البـــاحثين السّوسيولوجيّين و الأنثروبولوجيّين، وطالبوا بإيفائها حقّها من التّوضيح ومدى تفاعلها مع عوامل أخرى في نطاق مختلف الظّواهر الّتي تحيط بنا.

إنّنا نقصد بالتّحديد الجغرافيّ رسم صورة واضحة المعالم للمجـــال الّذي تعتمل في نطاقه الظّاهرة الّتي سنعمد إلى دراستها، هذا المجال الّذي قال " دوركايم " أنّه غير الوسط ((المبهم والغير محـــدّد الّذي توهّمه " كانط ")، ذلك لأنّ التّنظيم الاجتماعيّ كان دائما نموذجا للتّنظيم المجاليّ، لذا فإنّه من الضّروريّ أن تكون التّقسيمات والتّوجّهات المتعلّقة بالمجال " معلومة لدى كلّ المفكّرين " ، والّذي ذهب " م . صور " إلى القول بشأنه أنّ (معرفة المجال الاجتماعيّ تستوجب معرفة مسبقة للمجال الجغرافيّ) حتّى وإن كانت (النّطاقات الاجتماعيّة لا تتلاءم مع النّطاقات الجغرافيّة)، كما ذهب إلى ذلك " جاك بيرك " لمّا عمد إلى التّأكيد على أنّ (مورفولوجيا الجماعات التّقليديّة بإفريقيا الشّماليّة) يمكن تميزها (على أساس تفاعلها العميق أو السّطحيّ مع الأرض)، وأنّ " الذّات المغاريّة العتيقة " (الضّاربة بجذورها في بعض المناطق الجبليّة أو المتنقّلة في البراري الجافّة)، (تعرف قبل كلّ شيء عن طريق علاقاتها بالمجال)) (2).

على أساس التّنويه بضرورة البعد المكانيّ في إنشاء دراسة متكاملة سنعمد إلى الحديث عن مدينة " تلمسان "

(1) Encyclopédie « L'évolution humaine : des origines a nos jours », Quillet éditeur, 1951, Tome I, pp 41.

(2) Wadi Bouzar, « La mouvance et la pause », SNED, Reghaia – Algérie, 1983, pp 17.

باعتبارها الحيّز المكانيّ الّذي يحتضن الظّاهرة الاجتماعيّة الّتي نريد دراستها، وعليه فما هي المقوّمات والعناصر التّكوينيّة لهذه المدينة من منطلق اعتبارها مجالا أو حيّزا جغرافيّا ؟.

1-1/ تلمسان من النّاحية الجغرافيّة :

ينظر علماء الجغرافيا للمدينة نظرة نظرائهم البيولوجيّين للكائن الحيّ، فهي حسبهم تنشأ إذا ما توفّرت الظّروف الملائمة لذلك، وتتطوّر وتنمو وفق قوانين محدّدة يرسم مسارها تداخل جملة من العوامل، ولها آجال معلومة بإرهاصاتها المتمثّلة في افتقاد عامل أو أكثر من هذه العوامل تبعا لموقعها ومناخها وأمور أخرى لا داعي للإسهاب في شرحها، وهذه العوامل هي الّتي يصنّف بناء عليها الجغرافيّون درجة كلّ مدينة في سلّم الأهمّيّة الإستراتيجيّة، وقد حصرها " طوني سوكار " وكثير من الجغرافيّين في ستّة عوامل هي على التّوالي: العامل الاقتصاديّ، العامل الاجتماعيّ، العامل الدّفاعيّ، العامل السّياسيّ، العامل الدّينيّ، العامل الفكريّ، وكلّ مدينة تكتسي أهمّيتها الإستراتيجيّة بقدر أخذها من هذه العوامل، فكيف تصنّف " تلمسان " على ضوء هذه العوامل؟.

لكلّ مدينة تاريخ خاصّ منذ نشوئها إلى غاية اندثارها، هذا النّشوء الّذي يوليه الجغرافيّون أهمّيّة كبيرة في تصنيف نماذج المدن و مكانتها الإستراتيجيّة بناء على تحديدهم العامل الأوّليّ الّذي كان سببا فيه، والّذي من منطلقه قسّمت العوامل السّتّة السّالفة الذّكر ومدى تأثيرها في نشوء المدن إلى قسمين أساسيين هما:

أ/ العوامل المحوريّة : وهي تلك العوامل الّتي تعتبر فعليّا السّبب الباعث على تأسيس المدن، أين تبيّن من خلال استقراء تاريخ مدن كثيرة تربّع وتقاسم كلّ من العاملين الدّفاعيّ والاقتصاديّ قمّة العوامل المحوريّة، ويعقبهما من حيث الأهمّيّة العامل السّياسيّ، لتختتم هذه العوامل بما هو دينيّ.

ب/ العوامل الجانبيّة : الّتي لا تلعب دورا رائدا في نشوء المدن، ولكن لا غنى عنها لقيام المدن وتطوّرها، وهي تتمثّل في كلّ من العاملين الاجتماعيّ ونظيره الفكريّ اللّذين يقعان على جانبي التّطوّر التّاريخيّ للمدن، باعتبار أنّ العامل الاجتماعيّ يعتبر شرطا كماليّا في نشوء المدن، على حين يعتبر العامل الفكريّ ثمرة وذروة

التّطوّر الّذي تبلغه المدن.

إذا اعتمدنا إسقـــاط المعطيات الجغرافيّة الّتي أوردناها على مدينة " **تلمسان** " بغية فهمها كظاهرة عمرانيّة، وبالتّالي تصنيفها من حيث الأهمّيّة الإستراتيجيّة، معتمدين في ذلك على ما أوردته النّصـــوص التوثيقيّة وما وصلنا من شـــواهد تاريخيّة يمكن القول أنّه نظرا لتوفّر المقوّمات اللازمة للاستقرار البشريّ المتمثّلة في وفرة المياه واعتدال المناخ و خصوبة التّربة، فقد كانت نقطة تجمّع بشريّ منذ آماد طويلة، وأنّ نشأتها الأولى تعود إلى حصـــانة موقعها (العامـــل الدّفاعيّ)، الّذي جعل منها حرّاء ذلك نقطة جذب اقتصاديّ بأن أصبحت منطقة عبور للقوافل الواردة من إفريقيا السّواحليّة بمختلف السّلع خصوصا الذّهب، حتّى عرف هذا الطّريق باسم " **طريق الذّهب** "، وتظافر هذين العاملين أدّى إلى بروز دورها الرّياديّ على السّاحة السّياسيّة و الدّينيّة بالشّمال الإفريقيّ، الأمر الّذي جعل منها حاضرة من حـــواضر الفكر، وعلى هذا الأساس فهي تعتبر مدينة على درجة عـــالية من الأهمّيّة الإستراتيجيّة، رغم التّقلّبات الّتي عرفتها ولا تزال تعرفها هذه المدينة تماشيا مع سنن التّطوّر، وهي بناء على أصل نشوئها تصنّف في خانة " المدن الدّفاعيّة " الّتي تعتبر خاصيّة حلّ المدن الّتي أسّست في العصور القديمة، وهذا ما سنلمسه في معرض حديثنا عن تاريخها، إذ من منطلق أنّه لا يمكن الفصل بين البعد المكانيّ ونظيره الزّمنيّ في استطلاع أحوال الأقـــاليم وعمّارها سواء تعلّق الأمر بماضيها أو حاضرها الّذي هو عبارة عن استمراريّة لمخضّات الماضي، فإنّه من الضّروريّ الخوض ولو بصورة مقتضبة في تاريخها، ذلك لكون هذه الخطوة ستساعدنا فيما بعد على توضيح ما قد يستعصي فهمه فيما يرتبط بموضوع دراستنا، ولقد كان على صـــواب الأستـــاذ الفرنسيّ الكبير " **غوستاف لوبون** " حينما عـــرض للمســـألة بقوله : " ...فالأمم نتيجة ماض طويل، وليست نبت ساعة واحدة، وهي محصول ما خضعت له من البيئات المختلفة التّأثير، لذا يفسّر حاضرها بماضيها " (1).

(1) غوستاف لوبون ، " حضارة العرب " ، بدون طبعة، بدون تاريخ، ص 23.

2- "تلمسان" من النّاحية التّاريخيّة:

" **تلمسان** " كلمـــة معرّبة مأخوذة من الكلمة البربريّة " تِلْمَسْ " الّتي تعني النّبع أو البئر*، وهي عبـــارة عن إحدى صيغتي الجمع لأصل الكلمة البربريّ، ومن ثمّ فإنّ معناها " **مدينة الينابيع** "، وقـــد عرفت قديما باسم " **أقادير** " ذي الأصـــول الفينيقيّة الّذي يتقاطع دلاليّا مع نظيره البربريّ، ويربو عليه من جهة كون يتضمّن معنى الجرف أو الهضبة، وهذا يتّفق وموقع المدينة لأنّها تقوم على هضبة قليلة الانحدار تنهض فجأة من السّهل وتشرف عليه من ناحيتي الشّمال والشّرق (1).

تجثم " **تلمسان** " تحت سفـــح هضبة " **لالاّ ستّي** " على ارتفاع 800 متر فوق مستوى سطح البحر، (هذه الهضبة وما حولها عبـــارة عن كتلة جبليّة متكوّنة من ثلاث طبقات، أولاها من الحجر الدّولميتيّ، في حين أنّ الثّانية عبارة عن طبقة من الحجر المسامي الرّمليّ، أمّا الطّبقة الثّالثة فتتكوّن من الصّلصال والحصباء.

هذا التّكوين الجيولوجيّ صـــالح جدّا لحفظ مياه الأمطار في أحواض شاسعة بباطن الأرض، لذلك تعدّ جبال " **تلمسان** " بمثابة خزّان كبير تتوزّع منه المياه من خـــلال ينابيع كثيرة لا تغيض ميـــاهها، ممّا يجعل إقليم " **تلمسان** " الّذي يمتدّ بضعة أميال حـــول المدينة غنيّا بحدائقه النّضرة وبساتينه الكثيرة المحـــاصيل، وغاباته الغنّاء) (2).

و " **أقادير** " الّتي أشرنا إليها يجمع كلّ المؤرّخين على أنّها كانت (نـــواة هذه المدينة، وقد اختطّها " **بنـــو**

---

* هناك من يذهب إلى القول أنّ " تلمسان " اســـم مركّب يتألّف من كلمتين بربريّتين هما : " تلم " ومعناها تجمع، و " سان " ومعناها اثنان، ومعناهما معـــا: " تجمع اثنين "، وهما البرّ والبحر، بمعنى أنّها تجمع بين طبيعة البرّ والبحر.

(1) دائرة المعارف الإسلاميّة، المجلّد الخامس، دار المعرفة: بيروت- لبنان، بدون طبعة، بدون تاريخ، ص 452 بتصرّف.

(2) المرجع السّابق، ص 453 بتصرّف.

يقرن " الزّناتيّون في عصور قديمة) (1)، ولـــمّا استتبّ الأمر فيها للرّومان سمّـــوها " بوهاريا " وجعلوا منها أهمّ معـــاقلهم وحصونهم الّتي منها (يصدّون غارات الأهالي وهجماتهم على قوافلهم) (2)، فبرزت بذلك أهمّيّة هذه المدينة من النّاحيتين الإستراتيجيّة والاقتصاديّة ولعبت دورا كبيرا طيلة التّواجد الرّومانيّ بالمنطقة إلى أن قضى على نفوذهم " الوانـــدال "، أين انكمش دورها كحال سائر الـــمدن الكبرى بالشّمال الإفريقيّ، وعرفت من بعدهم نوعا من الانتعاش على عهد " البيزنطيّين "، إلاّ أنّها لم تدخل التّاريخ من بابه الواسع، و لم تنل حظّا من رسم بعض أحداثه المهمّة إلاّ بعد أن افتتحها المسلمون.

يذكر المؤرّخون – ومنهم " ابن الرّقيق " – أنّ أوّل أمير للمسلمين الفاتحين وطئت قدماه " تلمسان " كان " أبا المهاجر دينار " الّذي (فتح في طريقه مدنا وقرى حتّى انتهى إلى أعلى الجبل المطلّ على هذه المـــدينة حيث كان " كسيلة " سيّد " أوربة " معسكرا بجموعه، فالتقى الجيشان هنـــاك ودارت معركة حامية بينهما انتهت بانتصـــار المسلمين وأسر " كسيلة ") (3)، الّذي ما لبث أن أكرمه " أبو المهاجر " فكان ذلك سببا في اعتناقه الإسلام، ثمّ لمّا عادت شؤون تدبير أمـــور الجيش الإسلاميّ إلى " عقبة بن نافع الفهريّ " (خرج بجيشه إلى المغرب ففتح " باغاية "، ثمّ نزل على " تلمسان " فتحالف سكّانها من الرّوم والبربر وخرجوا في جيش ضخم والتحم القتال ووقع الصّبر حتّى ظنّ المسلمون أنّه الفناء، ولكنّهم هاجموا الرّوم هجوما عنيفا حتّى ألجأوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة) (4)، وفي أثناء ذلك كلّه كان " عقبة " يصطحب معه " كسيلة " ويأمره بأمور يمتهنه بها وهو من هو في قومه، فأسرّ " كسيلة " حنقه و لم يبده له، وكان من نهاية أمرهما ما هو مبثوث في كتب التّاريخ.

---

(1) د/ يحي بوعزيز، " المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الـــواد الزيانية 1236 م- 1554 م "، مجلّة الأصـــالة، العدد 26، مطبعـــة البعث: قسنطينة – الجزائر ، السّنة الرّابعة: جويلية – أوت 1975 م، ص 4.

(2) د/ محمّد الطّمّار، " تلمسان عبر العصـــور: دورها في سياسة وحضارة الجزائر "، ديوان المطبوعات الجامعيّة: بن عكنون – الجزائر، بدون طبعة، 2007 م، ص 15.

(3) المرجع نفسه، ص 19.

(4) المرجع نفسه، ص 20.

ولمّا ضرب الإســـلام بجرانه في هذه الرّبوع كانت إدارة هذه المدينة لولاّة الخليفة الّذين كان مقرّهم مدينة " **القيروان** "، فلمّا حار هؤلاء الولاّة خلع البربر الطّاعة واستقلّوا بشؤونهم مؤسّسين بذلك إمارات منها إمارة " **تلمسان** " الصّفريّة تحت زعامة " **أبي قرّة اليفرنيّ** " الّذي خاض معارك كثيرة مع ولاّة " **القيروان** " أدّت إلى (ضعف شوكة " **يفرن** " و " **مغيلة** " وزوال سمعتهم وذهـــاب صيت زعيمهم " **أبي قرّة** " وإخفـــاق مذهبهم) (1)، فـــآل أمر هذه المدينة إلى بني عمومتهم " **المغراويّين** "، إذ غلبهم عليها " **محمّـــد بن خزر** " واستقام له أمرها، وقد صادف ذلك دخول " **إدريس بن عبد الله** " ديار المغرب، أين عمل على استمـــالة " **محمّد بن خزر** " (الّذي حمل " **مغراوة** " و " **بني يفرن** " على طاعة " **إدريس** "، ومكّنه من السّيطرة على " **أقادير** "، فأقام بها أشهرا واختطّ مسجدا ومنبرا، وبعد رحيله استخلف عليها وعلى ما حاورها أخاه " **سليمان بن عبد الله** " الّذي قدم من المشرق) (2).

ثمّ تقلّبت أحوالها من يد أمير إلى آخر، ومن ظلّ نفوذ إلى غيره حتّى دخلت تحت سلطة الدّولة " **المرابطيّة** "، أين عيّن الأمير " **يوسف بن تاشفين** " على رأسها " **محمّدا بن تيمعمر المسّوفيّ** " الّـــذي أثناء حكمه (أسّس قرية " **تاكرارت** " بالمكان الّذي عسكر فيه، ومعناها : المحلّة أو المعسكر، وكانت هذه " المحلّة " في بـــداية الأمر مفصولة بسور عن " **أقادير** "، ثمّ بعد مدّة من الزّمن أزيل هذا السّور، وضمّت " **تاكرارت** " إلى " **أقادير** "، وتكوّنت منهما مدينة واحدة هي مدينة " **تلمسان** ") (3).

ثمّ دالت دولة " **المرابطين** " وصار أمر هذه المدينة من بعدهم لأمراء " **الموحّدين** " الّذين (شهـــدت " **تلمسان** " خلال عهدهم تطوّرا هائلا في الحضارة والعمران، أين صرف ولاّة " **الموحّدين** " السّادة نظرهم

---

(1) د/ محمّد الطّمّار، " تلمسان عبر العصـــور: دورها في سياسة وحضارة الجزائر "، ديوان المطبوعات الجامعيّة: بن عكنون – الجزائر، بدون طبعة، 2007 م، ص 27.

(2) د/ يحي بوعزيز، " المراحل والأدوار التاريخية لـــدولة بني عبد الـــواد الزّيانية 1236 م- 1554 م "، مجلّة الأصـــالة، العدد 26، مطبعـــة البعث: قسنطينة – الجزائر ، السّنة الرّابعة: جويلية – أوت 1975 م، ص 5.

(3) المرجع نفسه، ص 6.

واهتماماتهم بشأنها إلى تحصينها وتشييد أسـوارها، وحشـد النّاس إلى سكناها والتّناغي في عمرانها واتّخاذ الصّروح والقصور بها والاحتفال في مقاصد الملك واتّساع خطّة الدّور) (1)، خصوصا (بعد أن ظهر الثّائر الميورقيّ " **يحي بن غانية** " عام 581 هـ / 1185 م واكتسح للمغرب الأوسط ابتداء من " **بجاية** "، وهدّد عدّة مرّات " **تلمسان** " وأحدث بها تخريبات كثيرة، هو ومن معه من عرب " **بني هلال** "، ومن أجل ذلك اهتمّ " **أبو الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن** " بتحصينها حتّى أصبحت كما قال " **ابن خلدون** ": " من أعزّ معـاقل الـمغرب، وأحصن أمصاره "، وأصبح النّاس يفدون عليها من كلّ جهة للاحتماء بها والتّمتّع بالتّطوّر التّاريخيّ والحضـاريّ الّذي تنعم به خاصّة بعد أن خرّب " **ابن غانية** " مدينة " **تاهرت** " الدّاخليّة، ومدينة " **أرشكـول** " السّاحليّة، فأصبحت هي قبلة الجميع، ومهّد ذلك لـ " **بني عبد الواد** " ليتّخذوها عاصمة لهم ودار ملك منتصف القرن الثّالث عشر الميلاديّ) (2).

وقد أضحت " **تلمسان** " على عهد " **بني عبد الواد** " إمارة قويّة وصلت حدودها شرقا إلى غاية مـدينة " **أزفّون** "، وذلك أيّام " **أبي حمّو بن عثمان** "، وأخذت تنازع كلاّ من حارتيها الدّولة " **الحفصيّة** " شـرقا و " **المرينيّة** " غربا على أراضي الشّمال الإفريقيّ، فوقعت حرّاء ذلك بين فكّي كمّاشة، تارة تأتيها الضّربات من الشّرق وتارة من الغرب، إلى أن آلت القاضية على ملك " **بني عبد الواد** " من جيرانهم " **المرينيّين** ".

ثمّ لم تلبث أن قامت هذه الإمـارة من جديد على يد " **أبي حمّو الثّاني** " الّذي مـال إلى تسميّتها بالدّولة " **الزّيانيّة** "، الّتي بلغت على عهده وعهد خلفائه شأوا بعيـدا من المدنيّة والتّحضّر، فظهرت بها المسـاجد والمدارس وجُلِبَ إليها المـاء بواسطة ترع وقنوات على درجة عالية من جودة التّصميم ودقّته، فازدهرت بها الزّراعة، ونفقت في أسواقها البضاعة، ونمت فيها على اختلاف ضروبها الحرف والصّناعة، وصارت مقصدا

---

(1) د/ يحي بوعزيز، " المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الـواد الزيانية 1236 م- 1554 م "، مجلة الأصـالة، العدد 26، مطبعـة البعث: قسنطينة – الجزائر ، السّنة الرّابعة: حوبلية – أوت 1975 م، ص 6-7.

(2) المرجع نفسه، ص 7.

للتّجار والحرفيّين وكلّ ساع لنيل بسطة من العيش، وقد تأنّق بها الأمراء والأعيان في بناء القصور والدّور، كما حُصِّنَتْ تحصينا منيعا ذرأ لطمع الغزاة.

ومع إقبال القرن السّادس عشر الميلاديّ تبدّلت أحوالها ودبّ الضّعف في أوصالها نتيجة نشوب خلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة على العرش، أين انهمك القادة بدلا من سياسة الدّولة وتدبير شؤونها بما يضمن قوّتها وعزّة جانبها في (الدّسائس ونصب الفخاخ وربط المؤامرات، فأكل القويّ الضّعيف، وثار العمّ على ابن أخيه والابن على أبيه، فأصبحت الحكومة المركزيّة بدون سلطة وبدون صلة مع الجهات النّائية، وقامت في المملكة إمارات شبه مستقلّة تارة في الجبال وتارة في السّهول، وها هي " **وهران** " تفلت من قبضة " **تلمسان** " وتكوّن شبه جمهوريّة، وهذه " **مستغانم** " وهذه " **تنس** " وغيرهما تقتدي بـ " **وهران** " وتخضع كلّ منها لشيخ محلّيّ، وهذه واحات الجنوب تصبح في يد زعماء هلاليّين، واغتنمت كلّ جهة تناحر " **بني زيّان** " وتقاتلهم وضعفهم لتحكم نفسها بنفسها، فتقلّصت مملكة " **تلمسان** " إلى أن أصبحت لا تتعدّى العاصمة ونواحيها، وقد استولى " **الثّعالبة** " على مدينة " **الجزائر** " بقيادة " **سالم التّوميّ** " و استولى " **السّمحال** " على وادي " **شلف** " الخصب، و خرجت عن الطّاعة معظم قبائل " **الونشريس** " و " **الظّهرة** "، وكوّنت مدن " **مازونة** " و " **المديّة** " و " **مليانة** " إمارات مستقلّة، فقلّ بذلك كلّه الرّجال المدافعون عن الملك والدّخل الضّروريّ للخزينة، وتدهور الوضع بسبب الفوضى المنتشرة فتوقّفت التّجارة وفترت الفلاحة وافتقرت الدّولة ...) (1)، فحمل ذلك الإسبان على انتهاز هذه الفرصة أين حاؤوا بعلّتهم وعديدهم لاستعمار الشّمال الإفريقيّ وتنصيره بعد أن تمكّنوا من القضاء على الوجود الإسلاميّ بالأندلس، فكان أن (احتلّوا " **المرسى الكبير** " سنة 1505 م و " **وهران** " سنة 1509 م و " **بجاية** " سنة 1510 م، و أخضعوا " **تنس** " و " **مستغانم** " و احتلّوا فيما بعد " **هنين** " فخنقوا مملكة بني زيّان وهدّدوها) (2)،

(1) الدّكتور مولاي بلحميسي، " نهاية دولة بني زيّان "، مجلّة " الأصالة "، العدد 26، مطبعة البعث: قسنطينة - الجزائر، السّنة الرّابعة: حويلية – أوت 1975 م، ص 31.

(2) المرجع نفسه، ص 31.

ولّما استشعر أمراء بني زيّان من أنفسهم عدم قدرتهم على مواجهة الإسبان عمدوا إلى استرضائهم بانتهاج سياسة التّزلّف والخضوع، فدفع ذلك أعيان المدينة – بعد أن ثقلت عليهم وطأة الإسبان، وخشوا على دينهم وأعراضهم وأموالهم – إلى طلب تدخّل الأخوين " خير الدّين " و " بابا عرّوج " التركيّين لذرأ شـــوكة الإسبان عنهم، فكان ذلك نهاية أمر بني زيّان وخروج سلطانهم على مدينة " تلمسان " إلى أيدي الأتراك بعد أحداث يطول ذكرها.

ورث الأتراك تركة ثقيلة، ذلك لأن " طريق الذّهب " الّـــذي كان يمدّ " تلمسان " بنضارها الإقتصاديّة قدّ اضمحلّ، ثمّ إنّ هذه المـــدينة غدت عرضة لتكالب كـــلّ من الإسبان والسّعديّين على ضمّها، وباعتبار أنّها صارت تمثّل الحدود الغربيّة للسّلطنة العثمانيّة فقد عمد الأتراك إلى حشد ما استطاعوا إليها من العتاد والرّجال تحسّبا لأيّ غارة أو هجـــوم من المملكتين الطّامعتين، فكان أن استقرّت بها حـــالية تركيّة هامّة ما لبثت أن صـــارت سيّدة الموقف، ولّما كانت العصبيّة أساس الحكم، وكان السّلطان مدعاة للمباهاة فقد تعصّب أفراد هذه الجالية لبعضهم البعض وتباروا في الإعتداد بأصولهم التركيّة، الأمر الّذي حملهم على حصر زيجاتهم بينهم حفظا لعصبيّتهم الجامعة، هذه الزّيجات الّتي يلعب اللّقب العائليّ◆ دورا محوريّا في رسم مـــلامحها، وممّا هو شائع لـــدى الأسر التّلمسانيّة ومعروف عنها هو ذهابها إلى القول أنّها من سلالة الأتراك الّذين استقرّوا بهذه المدينة، فما مدى صحّة هذا القول ؟.

للفصل في هذه المسألة لا بدّ من جرد ألقاب هذه الأسر الّتي تعتبر نفسها التركية الأصيلة لمدينة " تلمسان "، والبحث في أصولها، ثمّ محاولة استجلاء الأسباب الّتي جعلت منها التركية الأصيلة أو " وُلَادْ لْبَلَادْ " كما هو متداول في خطاب أفرادها العاميّ ،أين عمدنا بغية تجسيد هذه الخطوات إلى صياغة استبيان من ثمانية أسئلة (أنظر الملحق الأوّل)، ثمّ توزيعه على عيّنة منتقاة على أساس حمل كلّ فرد ممّن منحوا الاستبيان للإجابة عنه أحد الألقاب العائليّة المشهود لها عرفيّا أنّها إحدى الأسر التّلمسانيّة الأصيلة، والجدول التّالي يوضّح خصائص هذه العيّنة من حيث السّنّ والجنس والإنتماء العائليّ، ويبلغ تعداد أفراد هذه العيّنة ستّة وعشرون شخصا يحتلّ فيهم عنصر الشّباب أكبر نسبة، ثمّ يليهم الكهول ومن بعدهم الشّيوخ من حيث التّعداد، وفيما يتعلّق بعامل

الجنس فهناك تكافؤ بين التّعداد الإجماليّ للذّكور والتّعداد الإجماليّ للإناث، وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض إناث هذه العيّنة متزوّجات، وأنّ لقب أزواجهنّ الّذي حملنه هو الوارد في الجدول:

جدول يوضّح خصائص عيّنة الاستبيان

الجنس / السن	ذكور	إناث	اللقب العائلي
من 22 سنة إلى 39 سنة		22 (x) سنة	بلمهان
		22 (x) سنة	مراد بوجنة
		23 (x) سنة	بوعكسي
		24 (x) سنة	بعشي
		24 (x) سنة	خدير
		25 (x) سنة	بسطاوي
		25 (x) سنة	بن منصور
	25 (x) سنة		طوش جديد
		27 (x) سنة	بهلر
	28 (x) سنة		بجاوي شاوش
		30 (x) سنة	بودالية
		35 (x) سنة	قابت أول
		38 (x) سنة	صالن
	39 (x) سنة		جليفراد

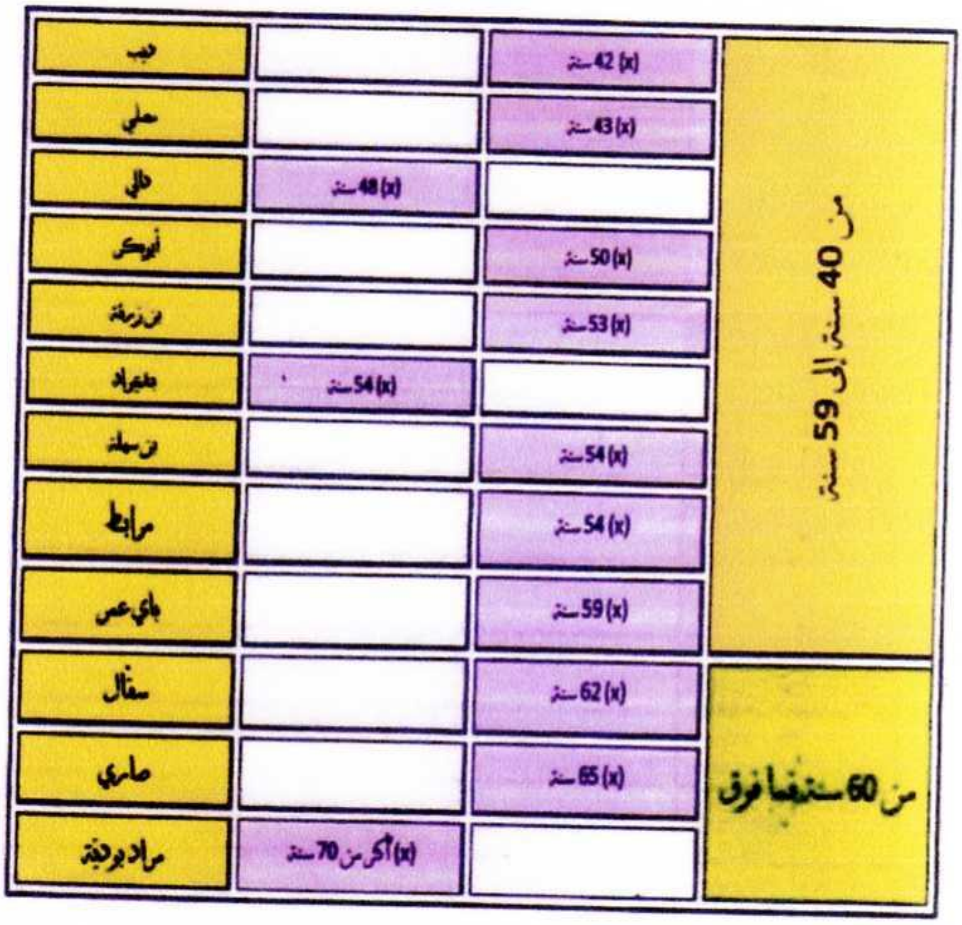

السّـــؤال الأوّل في هذا الإستبيان يعتبر محوريّا الغرض منه هو معرفة توجّهات أفراد العيّنة فيما يتّصل بمسألة الإنتماء وتحديد مفهوم كلمة " تلمسانيّ "، وعليه فهو عبارة عن استخراج مكنونات المخيال العـــامّ المتعلّقة بمفهوم تلك الكلمة، وهو يتّصل اتّصالا وثيقا بما سمّاه " **بيير بورديو** " " **الرّأسمال الرّمزيّ** "◆ الّذي رأى فيه أحـــد العناصر المحوريّة المحرّكة لأيّ إستراتيجيّة من استراتيجيّات جمـــاعة ما خصوصا ما تعلّق منها بالزّواج والمصاهرة.

وقد اقترحت ثلاث إجابات عن هذا السّؤال، وللمجيب حرّيّة اختيارها كلّها أو اثنين منها أو واحد فقط، ثمّ تمّ تصنيف الإجابات المتحصّل عليها في الجدول التّالي:

اللقب العائلي / الجواب المقترح	المولود بمدينة "تلمسان"	المقيم بمدينة "تلمسان"	المنتمي لعائلة "تلمسانية"
بلمان			✓
مراد بودينة		✓	
بريكسي			✓
لحشي			✓
خدير	✓		✓
بسطاوي			✓
بن منصور			✓
قلوش جديد	✓		
مهاري	✓		✓
بجاوي شاوش	✓		
بودالية			✓
ثابت أول			✓
صبان			✓
جديراد			✓
ديب	✓	✓	✓
مصلي			✓
دالي			✓
أبوبكر			✓
بن زرقة			✓
جديراد			✓
بن سهلة	✓	✓	✓

مرابط	✓	✓	
باي عمر	✓	✓	✓
سقّال	✓		✓
صاري			✓
مراد بودينة			✓

وعقب ذلك عمدنا إلى استخلاص النّسب المئويّة لكلّ اختيار من هذه الاختيارات ورسمنا مخطّطا لها هو كالآتي:

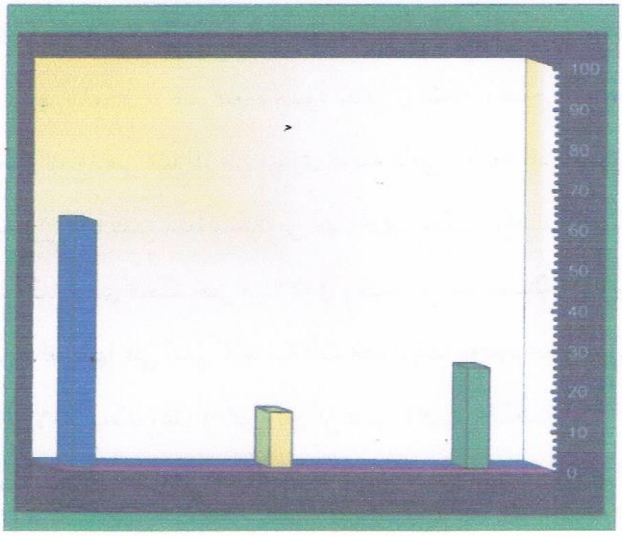

المولود بمدينة " تلمسان " : 25 %

المقيم بمدينة " تلمسان " : 13,89 %

المنتمي لعائلة " تلمسانيّة " : 61,11 %

من خلال معاينة النّسب المتحصّل عليها نستخلص أنّ الامتـــداد الزّمنيّ يكتسي أهمّيّة كبيرة لـــدى أفراد هذه العيّنة في تحديد مفهوم كلمة " تلمسانيّ "، فالإنتماء إلى إحـــدى الأسر الضّاربة بجذورها في هذه المدينة يحتلّ الصّدارة في رســـم مفهوم تلك الكلمة، حيث حصلنا فيه على 22 جوابا / 26 جوابا (61,11 %)، في حين احتلّ تحديدها على أساس الميلاد الرّتبة الثّانية أين حصلنا فيه على 9 أجوبة / 26 جوابا (25 %) ، ليعقبهما من حيث التّرتيب المقيم بهذه المدينة بمعدّل 5 أجوبة / 26 جوابا (13,89 %).

إنّ قراءة هذه المعطيات تحيلنا إلى القول بوجـــود معايير تصنيفيّة متعـــارف عليها تصاغ من خلالها المفاهيم، والعامل الزّمنيّ يعتبر من أهمّ روافدها، أين يعتبر مصدرا رئيسيّا من مصادر " الشّرعيّة الإنتمائيّة "، فالعائلات أطول امتدادا وأوثق ارتباطا بالمكان من الأفراد، ومنها يستقي الأفراد موروثهم الإنتمائيّ، وبهذا تصبح فعاليّة شرعيّة انتماء شخص ما لمكان ما بقدر قدم الوجـــود العائليّ في المنطقة، وتصبح هذه العائلة جرّاء ارتباطها بعـــائلات أخرى تتمتّع بنفس امتيازاتها على مستوى البعـــد الزّمنيّ – وأبعاد أخرى سنأتي على ذكرها فيما بعد– من جهة، وارتباطها بنفس البقعة والمكان من جهة أخرى، تشكّـــل وحـــدة متمـــايزة عن غيرها من الوحدات، هذا التّمايز الّذي تتحسّد بعض مـــلامحه في وجـــود خريطة انتمـــائيّة عرفيّة لبنائها ألقـــاب تلك العائلات،وتعامل الغير معها على أساس كونها بنية ذات خصوصيّات، ووجود حسّ إقليميّ تعمـــل في إطاره مختلف تنظيماتها الاجتمـــاعيّة، وعليه (فالهويّة تبنى عن طريق الإقليـــم والسّكّان ليســـوا مجرّد مستغلّين لهذا الإقليم، بل يعتبرون أنفسهم أحد العناصر المكوّنة له).(1)، وهـــذا ما يجعل من هذه الأماكن (مستودعات للذّاكرة، وقيمتها الرّمزيّة جدّ غالية،....، إنّها غالبا منابع الهويّة الجماعيّة) (2).

إنّ الحديث عن الإنتماء العائليّ الّذي يعتبر من أهمّ روافد اكتساب شرعيّة الإنتماء و من أوثق معاييره حملنا على محاولة التّعمّق في البحث من خلال السّعي إلى معرفة ألقاب هذه العائلات الّتي يعتبر الانحدار من إحداها

(1) Hubert FOURNIER, Intervention à l'ouverture du colloque sur «le territoire, lien ou frontière ? », Paris – France : 02 Octobre 1995, pp 18.

(2) Paul CLAVAL, « Le territoire dans la transition à la postmodernité », intervention au colloque sur « Le territoire, lien ou frontière ? », Paris- France : 02 Octobre 1995, pp 7.

كافيا للـــدّلالة على كون الفرد " تلمسانيّا " قحّا، وقـــد توصّلنا إلى ذلك بواسطة السّـــؤال الثّاني من أسئلة الإستبيان أين طلبنا من أفراد العيّنة تزويدنا بألقاب العائلات التّلمسانيّة الّتي تعتبر البنية الإجتماعيّة الأصيلة لهـــذه المدينة، رغم أنّ مفهوم البنية الإجتماعيّة الأصيلة كما سمّيناه يبقى نسبيّا إلى حدّ بعيد ويستمدّ قوّته من منطق العرف السّائد، فتوّج ذلك بحصولنا على مجموعة من الألقاب رتّبناها في جـــدول ترتيبا أبجديّا (أنظر الجدول).

حروف الأبجدية	ألقاب العائلات						
	أبوبكر	أبو عياد	أبي عياد	آغا	آغمير	أفندي	الإشاهير
الألف	الشريف	الشريف بن موسى	آمغار	الوشدي	آيت سليمان	أوجاباش	إينال
	بابا أحمد	بادسي	بارودي	باغلي	بالي	باي عمر	بجاوي
	بختوش	بخوشة	بخشي	بدران	بربار	بركسي	بسطاوي
	بغدادلي	بلاسكا	بلحربيط	بلخوجة	بلقايد	بلورقة	بن العلج
	بن باجي	بن تشك	بن حبيب	بن حجي	بن حميدات	بندي جلول	بن داودي
	بن دحمان	بن درة	بنديمراد	بندي ويس	بن زاغو	بن زرجيب	بن زقير
	بن زنقي	بن سليمان	بن سماعيل	بن سنان	بن شعبان	بن شنبو	بن شيبوب
	بن طاجي	بن طاع الله	بن عصمان	بن عمار	بن غربيط	بن قرط	بن قطيطة
الباء	بن قلة	بن قلفاط	بن مرزوق	بن مسايب	بن منصور	بن موسات	بن يازو
	بن يلس	بوبلنزة	بوبو	بوجتجي	بوحامد	بودالية	بودغن إسطمبولي
	بورصالي	بوشامة	بوشعور	بوشناق	بوعبد الله	بوعطية	بوعلي
	بوعياد آغا	بوعياد دباغ	بوكلي				
التاء	تركي	تركي حسابن	تركية دردرة	تركي	تشنار	تشوار	تشيعلي

الثاء	ثابت						
الجيم							
الحاء	حاج الدين	حاج سليمان	حاج علال	حاج عمارة	حاج قاسم	حموشي	حداج
	حسان	حصار	حفاف	حقيبي	حلفاوي	حمراوي	حمزة الشراب
	حميدو						
الخاء	خديم	خروبي	خريص	خليل			
الدال	دالي	دمرجي	ديب				
الذال							
الراء	رحمون	رسطان					
الزاي	زيطوط	زرقة	زرنة	زروق	زروقي	زلام	زيزلي
	زناقي	زياني					
السين	سبيع	ستوتي	سجلماسي	سقال	سلعاجي	سلكة	سلمان
	سايب						
الشين	شاوش رمضان	شاوي	شلهي	شوكشو	شبيوب		
الصاد	صارماشيق	صاري	صافي بن سليمان	صبايحي	صبان		
الضاد							
الطاء	طالب	طالب بن ذياب					

الطاء							
العين	عبورة	عزوني	عشعاشي	عطار	عقباني	عكري	علي شاوش
الغين	غرناوط	غماري	غمري				
الفاء	فار الذهب	فخار	فرفرة				
القاف	قارة	قايد سليمان	قراجة	قرباص	قرمالة	قرموني	قرط شريف
	قاضي	قرطي	قلايجي	قلوش	قليل	قهواجي	قهوار
	قورصو	قيسي					
الكاف	كازي	كاهية	كراوتي	كريد	كلاش	كلوغلي	
اللام	لانصاري	مامشة	لمداني	لوهيبي (حلفاوي)			
الميم	ماغار	مالطي	مامي	محجوب	مدلسي	مرابط	مراح
	مرزوق	مزاري	مزيان	مصالي	مصلي	مغيلي	ملمان
	ملوكة	ملياني	مهاجي	مختار	مورو	موطاس	مول السهول
	مولاي سليمان						

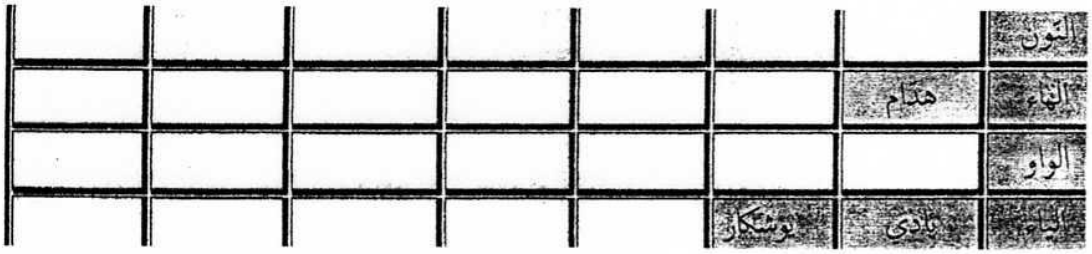
النون
الباء
هدام
الواو
الباء
وادي
بوشكار

بعد حصولنا على جرد لألقاب هذه العائلات، وسعيا منّا للتّأكّد من صحّة الفرض القائل بانحدارها من الأرومة التّركيّة كما هو متداول في الخطاب العاميّ التّلمسانيّ، فقد سعينا إلى البحث في أصولها العرقيّة اعتمادا على النّصوص التّاريخيّة الموثوقة علميّا، فكان أن عثرنا – وعن طريق الصّدفة في غالب الأحيان، أو بمساعدة من قبل أشخاص زوّدونا ببعض المراجع القيّمة أحيانا أخرى – على مجموعة من النّصوص والمؤشّرات الّتي سيتوقّف عليها مسار البحث فيما بعد.

من بين هذه النّصوص نشير إلى ما ذكره " عليّ الحمّاميّ " في إحدى تعليقاته الّتي أوردها في روايته التّاريخيّة " إدريس "، أين يقول: " إنّ ألقاب الأسر الأندلسيّة، عكس ما عليه الأمر في كثير من البلدان العربيّة، تتّسم ببعض الخصائص التّركيبيّة الّتي يسهل من خلالها معرفة أصول حامليها، فهي إمّا أسماء عائلات إسبانيّة أو برتغاليّة قديمة لا يزال يحملها الحفدة الّذين هاجروا واستقرّوا بالدّيار المغربيّة، والّتي من بينها: طورس، أراغون، مورو، سوردو، دياز، مارزو، لوبيرا، بريكسا، أميغو، مدينا، مولينا، أو هي عبارة عن صيغ تصغير لأسماء أو كنى عربيّة قديمة تعقب مباشرة لفظة " ابن "، ومن أمثلتها: ابن خلدون (من خالد)، ابن زيدون (من زيد)، ابن حمدون (من حامد)، ابن ريسون (من رايس) ، ابن شقرون (من أشقر)، ابن حفصون (من حفص)، أو هي أسماء متضمّنة إضافة " يط " في مؤخّرتها والّتي تعقب هي الأخرى لفظة " ابن " الدّالة على الإنتساب، منها: ابن فرنيط، ابن فريط، ابن مجريط،... " *(1).

وفي نفس السّياق صرّح لنا الدّكتور " ديب. س " أنّ : " الأسماء الأندلسيّة المصغّرة لم تعد مسبوقة بلفظة

---

* « Les patronymiques andalous, à la différence de beaucoup de pays arabes, ont certaines consonances d'après lesquelles on peut les reconnaître aisément. Ce sont soit d'anciens noms de familles espagnoles ou portugaises tels qu'on puisse les relever aujourd'hui parmi les descendants d'immigrés établis dans les pays du Maghreb : Torrès, Aragon, Moro, Sordo, Diaz, Marzo, Lopera, Brotxa, Amajo, Médina, Molina ; soit par l'adjonction d'un diminutif de prénom ou de vieux noms arabes venant immédiatement après le mot Ibn : Ibn Khaldoun (de Khaled), Ibn Zaidoun (de Zaid), Ibn Hamdoun (de Hamed), Ibn Raisoun (de Rais), Ibn Choqroun (d'Achqar), Ibn Hafçoun (de Hafs) ; soit par l'addition du suffixe *it* à la fin du nom et venant toujours après le traditionnel *Ibn* qui en souligne la filiation : Ibn Ghamit, Ibn Ghabrit, Ibn Majrit, Ibn Tasrit, Ibn Nachit. Il y a aussi des noms à pure résonnance arabe ou berbère, mais ils n'en indiquaient pas moins d'une façon précise l'origine. »

(1) Aly El HAMMAMY, « IDRIS », Entreprise Nationale du livre, Alger-Algérie, 2e édition, 1988, pp 216.

" ابن "، ولكن يكفي للتعرّف عليها أنّها تنتهي بالـواو والنـون مثـل: رحمـون، شقـرون وغيرها من الألقاب..." (2009 م).

من ناحية أخرى إذا خضنا في الحديث عن أصل عائلة " مغيلي " نجـد المصـادر التّاريخيّة تردّها إلى قبيلـة " مغيلة " البربريّة إحدى بطون " زناتة "، أمّا بالنّسبة لعائلة " زروقي " فإنّ ما يستفاد من ترجمة " الصّادق بن عبد الرّحمن الغرياني "لأحد أفرادها هو أنّها تنتسب لـ (" البرانس " إحـدى القبائل البربريّة بمرب " فاس ") (1).

كما أنّنا عند خوضنا في البحث عن أصول عائلة " بنديمراد "الشّهيرة وجدنا أنّها تنحدر من إحدى القبائل اليمنيّة المعروفة الّتي كانت (بلادهم في الجوف بين نجران ومأرب،...، وقد جندهم " أبو بكر الصّدّيق " – رضي الله عنه – في جيوش فتوحات الشّام والعراق ومصر) (2)، ومن نسلهم أمراء " بنو مراد " الّذين حكموا " طنجة "، وقد اتّخذ بعضهم " تلمسان " موطنا له.

أمّا عـائلة كلّ من " حمزة الشّريف " و " بوعبد اللّه الشّريف " و " الشّريف بن موسى " فهي من سـلالة " إدريس بن عبد الله " مؤسّس دولة " الأدارسة "، والّـذي يعود بنسبه إلى " الحسين بن الإمام عليّ بن أبي طالب " – كرّم الله وجهه – كما هو وارد في الكثير من المصـادر والمراجع الموثوقة، وتنتسب إلى هذه الأسرة كذلك عائلة (" ابن سليمان " من سلالة " عيسى بن إدريس بن محمّد بن سليمان بن عبد الله ") (3) أبناء

---

(1) الشّيخ أحمد زروق، " عدّة المريد الصّادق "، دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع: بيروت – لبنان، الطّبعة الأولى، 2006 م، ص7.

(2) " المنجد في الأعلام "، دار المشرق (المطبعة الكاثوليكيّة): بيروت– لبنان، الطّبعة الثّانية، 1969 م، ص482.

(3) الأستاذ الدّكتور محمّد بلقراد، " تلمسان "، مجلّة " الأصـالة "، العـدد 26، مطبعـة البعث: قسنطينة – الجزائر، السّنة الرّابعة: جويلية – أوت 1975 م، ص 301-302 بتصرّف.

عمومة العائلات المذكورة سابقا.

إلى جانب هذه العائلات ذات الأصول المختلفة، توجد عائلات ذات أصول تركيّة نذكر منها " بورصالي " و " دالي " و " زميرلي " و " كلاش " وغيرها، وقد تطرّق لـــذكر بعض منها بصفة مسهبة " أحمد توفيق المدني " في العـــديد من مؤلّفـــاته مثل كتابه " محمّد عثمان باشا " و " خلاصة تاريخ الجزائر " المرفوق به افتتاحا.

إنّ هذه النّبذة فيما يتّصل بأصـــول العائلات التّلمسانيّة تطابق تماما المعطيات الّتي قرّرناها سالفا عندما تطرّقنا للحديث عن تاريخ " تلمسان "، أين تناولنا التّاريخ الإجتماعيّ والإثنيّ لهذه المدينة من خلال ذكر الأجناس الّتي تعاقبت على سكناها، الأمر الّذي يدفعنا الآن إلى هدم الفرض القائل بانحدار العائلات التّلمسانيّة الكبيرة من العنصر التّركيّ فقط، ومنه تجاوز الطّرح القـــائم على أنّ حصر هذه العـــائلات لزيجاتها فيما بينها مردّه الحفاظ على صفـــائها العرقيّ، والّـــذي يعتبر منعرجا مهمّا يدفعنا إلى التّعمّق أكثر في البحث عن الأسباب القائمة وراء هذا الضّرب من الزّيجات، وهذا ما ستتحدّد ملامحه في الفصل الموالي.

الفصل الثّالث

المبادلات القرابيّة التّلمسانيّة بين الموروث والتّحوّلات الاجتماعيّة

1- زيادة توضيح:

قبل أن نخوض في معالجة إشكاليّة هـذا الفصل المتعلّقة بالبحث في الأسباب الكامنة وراء حصر العـائلات التّلمسانيّة الكبيرة لمبادلاتها القرابيّة فيما بينها، هناك نقـاط لا زالت بحاجة إلى التّوضيح فيما يتعلّق بالتّركيبة العرقيّة و الانتماء الاجتماعيّ لهذه العائلات، ذلك لأنّ العائلات التّلمسانيّة ذات الأصول الأندلسيّة امتزجت فيها الدّماء العربيّة والبربريّة والقوطيّة والرّومانيّة، في حين أنّ العـائلات التّركيّة لا يمكن ردّها كلّها إلى هذا العنصر، بل حريّ بنا أن نقول أنّها عائلات عثمانيّة، ذلك لأنّ (الجند التّركيّ الّذي قـدم هذه البلاد كان يشمل فرقتين، فرقة اليينجاريّة *، وهم قوم من المشارقة فيهم التّركيّ والأرمنيّ واليونانيّ وفيهم حتّى الإيطاليّ والكورسيكيّ) (1) والألبانيّ والبوسنيّ والبلغاريّ،(ثمّ فرقة العرب والبربر وهم الجند المعاون الّذي يعتدّ به في الأزمات تحت قيادة الضّباط الأتراك) (2)، وقد امتزجت كلّ هذه الأعراق في " تلمسان "، ليتولّد عن ذلك عرق هجين ◆ لا تصحّ نسبته إلى عرق من هذه الأعراق على وجه الإطلاق، وقد أعقب ذلك نشوء ثغرات وانحرافات فيما يتعلّق بانتساب أفراد هذه العائلات، ومردّ ذلك اختلاط دمائها بالمصاهرات، وإن كان الغالب عليها ادّعائها النّسب التّركيّ، ولـذلك ما يبرّره، وقد لمسنا هذا الخلط في الرّجوع بالنّسب عنـدما لاحظنا الإجابات المتعلّقة بالسّؤال السّـابع من الإستبيان، وذلك بعد مقارنتنا للخطاب العامّيّ – المتوارث عن طريق الذّاكرة الجماعيّة – المتحصّل عليه من هذا السّـؤال من جهة، والخطاب العلميّ الموثّق في الكتابات التّاريخيّة من جهة أخرى، فبعض العائلات الّتي تورد المصـادر التّاريخيّة أنّها عربيّة الأصول أو بربريّة أو أندلسيّة ترى بعضا من أفرادها المنتمين لها يلحقون نسبهم بالأتراك، وإن أطلعته على أصوله الفعليّة فسيكون ذلك صدمة له لما تقرّر في ذهنه من انتسابه المـأخوذ مشافهة عن الأجداد للأتراك، غير أنّ هذه ليست حالة كلّ أفراد هذه

---

* تعرف هذه الفرقة أيضا باسم " الإنكشاريّة ".

(1) أحمد توفيق المدني، " كتاب الجزائر "، نشر دار الكتاب: البليدة- الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1963م، ص36.

(2) المرجع السّابق، نفس الصّفحة.

العائلات لكون بعضهم يعرف حيّدا الأرومة الّتي ينحدر منها.

تشكّل العـــائلات التّلمسانيّة الكبيرة ذات الأصول التركيّة * حوالي ثلث العائلات الّتي ذكرناها في الجدول الّذي أوردنا فيه مجمل العائلات التّلمسانيّة، الأمر الّذي يفسّر التّأثير الكبير الّذي أحدثته هذه الطّائفة في البنية الدّيمغرافيّة والنّسيج البشريّ لتلك المدينة، وحتّى في الذّاكرة الجماعيّة.

2- الانتماء الاجتماعي للعائلات التّلمسانيّة:

وإذا ما عمدنا إلى الحديث عن الانتماء الاجتماعيّ لهذه العائلات على اختلاف أصـــولها نجدها تندرج تحت أربعة أقسام، كلّ قسم منها يدلّ على اشتراك بعض هـــذه العائلات في خاصّيّة تجعل منها زمرة صغيرة داخل النّسيج الكليّ للمورفولوجيا البشريّة الّتي سمّيناهـــا سـابقا " الحضر"، والّتي قلنا عنها أنّها تعتبر نفسها التركيبة الأصليّة لهذه المدينة، وهذه الأقسام * هي:

2-1/ **الأرستقراطيّات**: وهي الّتي يعبّر عنها في اللّسان العربيّ باسم " الأعيان " باعتبار مكانتها الرّاقية في المجتمع لعـــدّة أسباب منها تمتّعها بالنّفوذ والثّروة سواء المادّيّة كحيازة الأراضي والممتلكات، أو المعنويّة كونها تضمّ أسماء تألّقت في رحاب العلم والفكر والقيادة والحكم، والّتي تنقسم بدورها إلى ثلاثة أقسام :

أ/ **الأرستقراطيّة البربريّة**: وهي الأسر الّتي تعود بنسبها إلى بطون " زناتة " الّتي توطّنت بالمدينة، نـــورد منها عائلة " **مغيلي** " الّتي نبغ منها الكثير من الفقهاء والعلمـــاء منهم " **محمّد بن عبد الكريم المغيليّ** "، وكذلك عائلة " **بن زاغو** " الّتي ترجع بنسبها إلى " **مغراوة** "، وقـــد اشتهر من بينها (" **ابن زاغو أحمد بن محمّد بن عبد الرّحمن** " الفقيه المالكيّ المفسّر الصّوفيّ العابد) (1).

ب/ **الأرستقراطيّة العربيّة**: من بين العائلات الّتي يمكن إدراجها في هذه الزّمرة نذكر عائلة " **بنديمراد** " الّتي

---

* في عملنا هذا سنستعمل في الغالب الأعمّ العائلات التركيّة كمرادف للعائلات العثمانيّة تجاوزا، وقد تطرّقنا لهذه النّقطة وأوضحناها في مطلع هذا الفصل.

(1) د/ محمّـــد العنّابي، " للمســـان عبر العصور: دورها في سياســـة وحضـــارة الجزائر "، ديوان المطبـــوعات الجامعيّة: بن عكنـــون- الجزائر، بـــدون طبعة، 2007م، ص226.

* هذا التّصنيف الذي يعتمد الباحث يدخل في إطار " الرّأسمال الرّمزي " لهذه العائلات، وإن كانت بعض خلاياته قد اضمحلّت كعنصر اجتماعيّ مؤسّس.

كان منها أمراء حكموا " طنجة "، كما كان منها علماء كبار نذكر منهم " المراديّ " صـــاحب التّصانيف السّياسيّة، وكذلك عائلة " بن مرزوق " الّتي طبقت شهرتها الآفـــاق بما أنجبت من العلمـــاء، بله الثّروة الّتي كانت تتمتّع بها والّتي تحدّث عنها المؤرّخون، وإن كانت ثروتها المعنويّة أكبر من أملاكها المادّيّة عكس عائلة " بنديمراد " الّتي انطمست آثـــار ثروتها المعنويّة إلاّ مـــا حفظته منها بطون الكتب، في حين لا تزال شهرتها المادّيّة معلومة.

ج/ **الأرستقراطيّة الأندلسيّة** : هي مجموعة من العـــائلات الأندلسيّة الّتي قدمت " **تلمسان** " خصـــوصًا مع بداية الحقبة الزّيانيّة عقب سقوط الكثير من إمـــارات الطّوائف، فقد كانت " **تلمسان** " إحـــدى وجهاتهم المفضّلة خصوصا إذا علمنا أنّ الأندلسيّين كانوا إذا ذكروا هذه المدينة (يقولون كأنّها من مدن الأنـــدلس لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها) (1)، وأنّ العائلات الّتي وفـــدتها كانت من بين العـــائلات الّتي هاجرت مبكّرا ديار الأندلس، (وأوّل من غادر الأنـــدلس من المسلمين هم سراتها ونخبتها) (2)، وإن لم تعـــدم هذه المدينة من بعدهم تدفّق النّازحين إليها منهم.

وتعتبر عائلة " **العقباني** " أهمّ العائلات الممثّلة لهذه النّخبة بمدينة " **تلمسان** "، والمشهـــود لها بطول الباع في العلم والرّسوخ في الفقه والتّصوّف، وقد اشتهر من أبنائها " **سعيد العقبانيّ** " وحفيـــده " **محمّد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقبانيّ** " صاحب التّصانيف الرّائقة، كما تعتبر عائلة " **العشعاشي** " النّائعة الصّيت إحدى العائلات المنتمية لهذه الأرستقراطيّة،وهي ذات أملاك وثروات، نزحت من الأندلس فحلّت بمدينة " **مستغانم** " ومنها وفدت إلى مدينة " **تلمسان** ".

2-2/ **الشّرفة** : وهي العائلات الّتي يتّصل نسبها بالرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) من جهة الفرع الحسنيّ، إمّا عن

---

(1) أبو الحسن عليّ بن موسى بن سعيد الغرناطيّ المغربيّ " كتاب الجغرافيا "، ديوان المطبوعات المدرسيّة: الجزائر العاصمة- الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1982م، ص 140.

(2) صنّد العلّاني " الهجرة الأندلسيّة إلى إفريقيّة أيّام الحفصيّين "، مجلّة " الأصالة "، العدد 26، مطبعة البعث: قسنطينة – الجزائر، السّنة الرّابعة: جويلية – أوت 1975م، ص 51.

طريق " إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب " أو من جهـــة أخيه " سليمان "، وقد أوردنا بعضا من هذه العائلات في معرض حديثنا عن أصول العائلات التّلمسانيّة سابقا.

2-3/ المرابطيّـــة : وهي سلالة أشخاص وقفوا أنفسهم للدّفاع عن الثّغور الإســـلاميّة بالبـــلاد المغربيّة، أين كانوا يقيمون بالرّباطات المتناثرة عمـــوما عبر ســـواحل هذه الدّيار، وقد امتزج لديهم هذا الواجب المقدّس بالتّصوّف والطّرقيّة، ومن بين العائلات التّلمسانيّة المندرجة تحت هذا الانتماء الاجتماعيّ نجد على سبيل المثال لا الحصر كلاّ من عائلتي " بن منصور " و " مرابط "، وقد يصل بعض المرابطيّة أنفسهم بالشّرفة.

2-4/ العنصر التركيّ : وهم سليلوا الجند التركيّ الّذي قدم البلاد بعد أن صـــارت تابعة للخلافة العثمانيّة، وقد استوطن منهم مدينة " تلمسان " (وسكن بها عدد جمّ من الأتراك وخلّفوا بها أحفـــادهم) (1) وهـــم أولئك (الّذين انتهت في البلاد أعمالهم العسكريّة والّذين قدموا بصفة فرديّة للبلاد، وقد اختلطوا مع أهلها اختلاطا متينا،.....، وكثرت مصـــاهراتهم مع أبناء البـــلاد فنشأت منهم الطّبقـــة الكـــورغليّة) (2)، الّتي اضمحلّت في كلّ بلاد الجزائر، (فلم يحافظ على الكورغليّة إلاّ طائفة كبيرة في مدينة " تلمسان " وأقلّيّة في مدينة " المديّة " وفئة قليلة بعاصمة الجزائر) (3)، وهـــذه العائلات في سلّم الانتماء الاجتماعيّ ذات وجاهة، إذ أنّ أوّل باشا حكم الجزائر كان من عائلة " داي " الّتي تعتبر من كبريات عوائل هذه المدينة، وكذلك الأمر بالنّسبة لعائلة " بورصالي " الّذين كان منهم آخر ولاّة " تلمسان " قبل الاستعمـــار الفرنسيّ، عـــلاوة على عائلة " آغا " من نسل الأغوات الّذين حكموا هاتيك الرّبوع وعائلات أخرى لا يسعنا ذكر مناقبها هنا.

لقد تجاورت هذه العائلات بهذه المدينة قرونا ونشأت بينها المصاهرات الّتي تولّد عنها نسيج بشريّ واجتماعيّ مميّز، له طبعته الخاصّـــة المعروف بها عـــلاوة على خصوصيّات بنيته الفيزيولوجيّة إلى جانب سجاياه وطباعه وأمزجة أبنائه وأذواقهم فيما يتّصل بالملبس والمـــأكل والعادات المتوارثة فيما يتعلّق بالزّواج والختان والأعياد

(1) أحمد توفيق المدني، " كتاب الجزائر "، نشر دار الكتاب: البليدة- الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1963م، ص 189.

(2) المرجع السّابق، ص 37.

(3) المرجع السّابق، ص 137.

وسائر أنشطة الحياة اليوميّة، علاوة على اشتهارهم بحبّ الموسيقى الأنـــدلسيّة المولعين بها أشـــدّ الولع، الأمر الّذي خلق بينهم شعورا بانتمـــاء اجتماعيّ معيّن (يعبّر عن الانتســـاب إلى طبقة اجتماعيّة * لها طراز معيّن للمعيشة يختلف نسبيّا عن طراز معيشة الطّبقات الأخرى) (1)، (ويترجم هذا الشّعور الطّبقيّ فعليّا في طبيعة العـــلاقة القائمة بين عناصر الزّمرة الاجتماعيّة الواحـــدة، وفي الزّواج من نفس الزّمرة أين يبدو الزّواج من عناصر طبقيّة مختلفة كشذوذ يصدم الإحساس بما يقبل عموما على أنّه طبيعيّ وبنافيه) (2).

وقد حافظت النّشاطات الاجتمـــاعيّة والعـــلاقيّة لـــدى هذه الأسر على طابعها عموما حتّى خلال الحقبة الاستعماريّة، هذه الحقبة الّتي باندثارها بدأت بوادر حراك على كافّة الأصعـــدة تلوح أدّت إلى تضعضع البنيات التّقليديّة بمدينة " تلمسان "، فما هي هذه البوادر يا ترى؟ وفيما يتجلّى تأثيرها ؟.

يمكن القـــول أنّ أولى البـــوادر كانت مع اندلاع الثّورة الجزائريّة، إذ أدّى ذلك إلى نزوح الكثير من سكّان البوادي والرّيف إلى المـــدن بما فيها مدينة " تلمسان " وذلك (بسبب تدمير الرّيف واعتبار معظمه مناطق محرّمة من طرف فرنسا) (3)، لكن مستوى تأثيره على البنيات القائمة لم يكن بمستوى تأثير النّزوحات الّتي أعقبته.

وقد شهدت الفترة الممتدّة من سنة 1962 م إلى سنة 1970 م، موجة جديدة من النّازحين (خاصّـــة الشّباب بسبب الوضع المزري وتمركز الأنشطة الاقتصاديّة في المدن) (4)، إلاّ أنّه خـــلال السّبعينيّات شهدت هذه

---

* نقصد بالطّبقة الاجتماعيّة هنا مجموعة أفراد تجمع بينهم روابط وخصائص عديدة، عكس ما يقصده الماركسيّون من استعمالهم لهذا المصطلح الّذي يكتسي لديهم بعدا اقتصاديّا صرفا ويظّفونه في بنائهم النّظريّ للربط بالدّلالة الدّيالكتيّة والصّراع الطّبقيّ ذي الأبعاد التّاريخيّة للستدلة لواقع تطوّر المجتمعات الغربيّة المباين لواقع التّطوّر التّاريخيّ بالمجتمعات الإسلاميّة عموما، وبالتّالي تجب فهم المقاطع الّتي اقتبسناها على أسس عمليّة غير الأسس الحصريّة المعبّر عنها في الأصل.

(1) بيار لاروك، " الطّبقات الاجتماعيّة "، ترجمة " جوزف عبّود كيه "، منشورات عويدات: بيروت- باريس، الطّبعة الثّانية، 1980م، ص 14.

(2) المرجع السّابق، ص 19.

(3) المنتدى الإلكترونيّ : www.latreche-mifa.xdir.org

(4) المرجع السّابق.

المدينة نزوحا أثّر بعمق على الحياة الاجتماعيّة بها، وقد لعبت الدّولة دورا كبيرا في تغيير الواقع الاجتماعيّ من خلال تغييرها للنّسيج العمرانيّ، إذ من خلال قراءة المضمون السّياسيّ- الاقتصاديّ لتلك الحقبة نرى أنّها كانت فترة أطلقت فيها الدّولة شعار " **الثّورات الثّلاث** " الّتي من خلالها يتمّ ضمان توزيع الثّروات بالعدل والعمل على تحقيق رفاه اجتماعيّ لكافّة أفراد المجتمع، أين تمّ الإعلان عن الثّورة الصّناعيّة السّاعية إلى دفع عجلة التّصنيع بالبلاد، والّتي بموجبها تمّ إطلاق ما عرف ببرنامج P.U.D (Programme Urbanisme Directeur) بمدينة " **تلمسان** "، والّذي شرع في العمل على تجسيده على أرض الواقع (سنة 1972 م/1973 م، أين تحقّق من خلاله إنشاء منطقتين إحداهما صناعيّة والأخرى شبه صناعيّة، خصّصت للأولى مساحة تقدّر بـ 220 هكتارا بمنطقة " **هنوان** "، في حين حظيت المنطقة الشّبه صناعيّة " **أبو تاشفين** " على 80 هكتارا) (1)، علاوة عن الثّورة الزّراعيّة الّتي بدأت أولى خطواتها عقب الاستقلال مباشرة، إذ (ما بين سنتيّ 1962 م و 1965 م كانت هناك فعليّا تأميمات مسّت الأراضي، ولا يتعلّق الأمر بطبيعة الحال بتلك الّتي كانت تحت أيدي المعمّرين أو {.....}، ولكن بتلك الّتي كانت ملكا لبعض الجزائريّين،....، كما أنّ هناك تأميمات للأراضي الّتي كان القصد منها تقليص حجم الملكيّات الخاصّة في إطار تطبيق الثّورة الزّراعيّة) (2)، في حين أنّ الثّورة الثّالثة كانت الثّورة الثّقافيّة الّتي سعيّا إلى بلوغ أهدافها المسطّرة تمّ إنشاء العديد من المرافق البيداغوجيّة لكافّة المستويات التّعليميّة بما فيها الجامعات ومراكز البحث.

3- انعكاسات التّوجّهات السّياسيّة للدّولة على الواقع الاجتماعيّ التّلمساني:

وقد انعكست نتائج الثّورات الثّلاث هذه على الواقع الاجتماعيّ التّلمسانيّ، إذ استقطبت المنشآت الصّناعيّة اليد العاملة من مختلف أرجاء التّراب الجزائريّ انتهت بالتّحاق أكثرهم " **تلمسان** " مستقرّا وموطنا.

(1) « Guide touristique de Tlemcen et sa région », Imprimerie IBN-KHALDOUN, Tlemcen-Algérie, 1994, pp 121.

(2) « Révolution agraire : Discours du président Boumédiène du 17 Juillet 1972 », Le centre Algérien de documentation et d'information, Paris-France, pp14.

وكذلك بالنّسبة للثّورة الزّراعيّة الّتي تمخّضت عن اقتطاع الكثير من الأراضي الفلاحيّة من ملاّكها الّذين ينتمي معظمهم للأسر التّلمسانيّة الكبيرة ومنحها للفلاحين البسطاء، وقد نتج عن هذه السّياسة أمران كان لهما تأثير كبير على الصّعيد العمرانيّ والبشريّ هما: أوّلا: عمد الكثيرون من أصحاب الأراضي والعقارات إلى بيعها – على اختلاف في أثمانها – قبل أن تأخذها الدّولة منهم، وقد تمّ البيع بطريقتين إحداهما انتقائيّة، (لقد كان بحوزتنا أراض كثيرة، ولّما ظهرت تلك القوانين عمدنا إلى بيعها، إلاّ أنّنا لم نبعها لكلّ من هبّ ودبّ، بـــل بعناها لـــ " ولاد لبلاد " فقط (بسطاوي.ن))، وأخرى عشوائيّة، (أرأيت ما يعرف اليوم باسم " **البنيان الجديد** " بـــ " **فدّان السّبع** "؟ كلّ تلك المساحة كانت ملكا لعائلة " **العشعاشي** " الّذي باعها لكلّ راغب فيها حتّى لا تسلبه الدّولة إيّاها في عهد الرّئيس الرّاحل " **هوّاري بومـــدين** " – رحمه الله – (سيّدة طلبت عدم إيراد أيّ شيء يتعلّق بهويّتها)).

ثانيا: العديد من الّذين استفادوا من منح الدّولة لهم هذه الأراضي لم يكونوا فلاّحين ، وإنّما أدعياء فلاحة لكون الكثيرين منهم عمدوا إلى بيعها أو البناء فيها عقب وفاة الرّئيس الرّاحل " **هوّاري بومدين** " – رحمه الله – وإخفاق سياسات " **الثّورة الزّراعيّة** ".

أمّا الثّورة الثّالثة الّتي كانت ثقافيّة فقد أفرزت هي الأخرى حراكا اجتماعيّا كبيرا تمثّل في قـــدوم الكثير من الطّلبة والأساتذة للدّراسة والعمل بهذه المرافق، وقد أسفر ذلك عن استقرار الكثير منهم بهذه المدينة.

لقد أدّت هذه السّياسة إلى تغيير البنية المجاليّة – الدّيمغرافيّة لهذه المدينة، وقد زاد من وطأتها على المجتمع المحلّيّ النّزوح الّذي شهدته هذه المدينة إبّان العشريّة الّتي عاث فيها الإرهاب فسادا، أين ارتحل الكثير من أهل القرى والمداشر والتّجمّعـــات الثّانويّة إلى المدن بحثا عن الأمن المفقـــود، وبالتّالي الاستقرار بها، الأمر الّذي إلى ظهور صراع بين التّركيبة البشريّة الّتي تعتبر نفسها التّركيبة الأصليّة أو "الحضر" كما هو شائع في اللّغة المحلّيّة الدّارجة، والعناصر البشريّة الوافدة.

لقد نجم عن تشارك هاتان التّركيبتان توطّن " تلمسان " ظهور حراك اجتماعيّ يتمثّـل في سعي بعض من أفراد العناصر الوافدة محاولة عقد مصاهرات مـع عناصر من " الحضر"، الأمر الّـذي يراه هؤلاء تهديدا لتناغمهم الاجتماعيّ، ونحن هنا بصدد دراسة كلّ ما يستفاد منه معرفة ارتسامات الواقع المبادلاتيّ بين هاتين الطّائفتين، ومنه استشفاف صـورة الرّوابط الاجتماعيّة بين هاتين المجموعتين فيما يتّصل بالمبادلات القرابيّة، وهذا ما قصدناه من خلال طرحنا للتّساؤلين الثّاني والثّالث من إشكاليّتنا العامّة، أي أنّنا نسعى لمعالجة ما هو كائن بالفعل، لا ما ينبغي أن يكون عليه الأمر فيما يرتبط بمسألة الزّيجات هذه.

وحتّى نخوض في هذا الموضوع عن دراية، ولكي يتسنّى لنا فيما بعد تحليل هذه الظّاهرة بمختلف أبعـادها تحليلا علميّا، ارتأينا أنّه من الضّروريّ استقراء واقع هذه المبادلات في الحقبة الّتي سبقت هذه التّغيّرات الطّارئة على النّسيج البشريّ لهذه المدينة، وتتبّع منعرجاتها لحدّ السّاعة، لذا عمدنا إلى إجراء مجموعة من المقابلات مع عيّنة من " الحضر" ينتمون كلّهم للعائلات التّلمسانيّة الكبيرة الّتي أوردنا جدولا يضمّ ألقابها في الفصل الأوّل، هذه العيّنة متكوّنة من ثلاثة أجيال، ممّا يعني تقصّي الالتقاءات والتّباينات التّصـوّريّة بينها، وبالتّالي معرفة الصّيرورة المبادلاتيّة للمجتمع التّلمسانيّ – الّذي كثيرا ما يوصف بالمنغلق –، ومعرفة ما إذا كانت مثل هذه الممارسات والتّغيّرات العـلائقيّة – فيما يتّصل بالمصاهرات – أمرا طارئا عليه أم أنّها كانت موجـودة لديه.

والجدول التّالي يوضّح بعض المعطيات المتعلّقة بالعيّنة الّتي تسنّى لنا إجراء مقابلات معها.

الجنس والسن / اللقب العائلي	ذكر	أنثى	سنة إجراء المقابلة
مالطي	(×) 83 سنة.		2010م
كلاش		(×) 79 سنة.	2010م
مالطي		(×) لم تذكر السن.	2010م
ديب	(×) 71 سنة.		2010م
مراد بودينة		(×) أكثر من 70 سنة.	2010م
ابن عنار		(×) 67 سنة.	2010م
دالي يوسف		(×) 58 سنة.	2010م
باي عمر	(×) لم يذكر السن.		2010م
باي عمر		(×) لم تذكر السن.	2010م
دالي		(×) 48 سنة.	2011م
بن قلفاط	(×) 43 سنة.		2010م
ديب	(×) 42 سنة.		2009م
بن عصمان	(×) 23 سنة.		2010م
بلدي وبس		(×) 23 سنة.	2011م
باي عمر	(×) لم يذكر السن.		2010م

وقد أجرينا هذه المقابلات معتمدين على " دليل مقابلة " قمنا بتصميمه تبعا لمتطلّبات نطاق عملنا الميـــدانيّ (أنظر الملحق الثّاني)، غير أنّنا طوّرناه في كلّ مقابلة حسب خبرة الشّخص الّـــذي نجري معه هذه المقابلة ورصيده فيما يتّصل بموضوعنا، بغية استثارة مختلف جوانب خبرته الشّخصيّة المعاشة الكامنة في أوسع صورة ممكنة لها، ليتسنّى لنا الإلمام بطبيعة الأبعاد والميكانيزمات الّتي تحرّك وتغذّي الظّاهرة الّتي ندرسها، من خـــلال تجميع محتويات المقابلات هذه.

لقد استطعنا من خلال الرّصيد الّذي تجمّع لدينا جرّاء هذه المقابلات أن نستخلص الكثير من المعطّيات المرتبطة بالمسألة القرابيّة بمدينة " تلمسان "، وفيما يتّصل بالـــواقع القرابيّ التّلمسانيّ في الحقبة الّتي سبقت – كما أوردناها فيما سلف – التّغيّرات الطّارئة على النّسيج البشريّ لهذه المدينة، استطعنا من خلال مجموع المقابلات، وبعض الحوارات العابرة مع أشخاص آخرين لم يرد ذكرهم في الجـــدول، أن نرسمـــه على النّحو التّالي:

إنّ أهمّ ما يميّز العائلة التّلمسانيّة هو ارتباطها الكبير والوثيق بالملكيّة العقاريّة على اختلاف أشكالها، والمتوارثة أبا عن جدّ، لذا فإنّ الاستراتيجيّات القرابيّة في هذا المجتمع كانت خـــاضعة فيما مضى لتأثير هـــذا الجانب، حيث نجد أنّ الكثير من العائلات كانت تجيّد **زواج الأقارب**◆ حفاظا على هذه الملكيّات من التّشتّت تحت وطأة الميراث (1)، لذا كان الزّواج من ابنة العمّ أو ابنة العمّة أو ابنة الخال أو ابنة الخالة أمرا شائعا لدى كثير من العائلات التّلمسانيّة الكبيرة لهـــذا الغرض، مثل عائلتي " **مالطي** " (2) و " **بن قلفاط** " (3) و غيرهما (4) من العائلات، ولكن لمّا نجم عن هذه الزّيجات الكثير من التّشوّهات البيولوجيّة و العاهات العقليّة لم تعد هذه العائلات تأخذ بهذا الضّرب من الزّواج – و إن كانت لا تزال بعض أشكاله قائمة – ، لذا صارت تميل إلى

(1) فكرة وردت في [م] مع السّيد " عبد. ع ".

(2) فكرة وردت في [م] مع السّيد " مالطي. ش ".

(3) فكرة وردت في [ح] مع السّيد " بوكلي. س " والآنسة " مراد. بودنيّة. ف ".

(4) مثل عائلات كلّ من " بن عصمان " و " حمزة الشّريف " و " مويدي " و " بن يلّس " و " بدهيراد " مثلا .

الزّواج من الأباعد، شريطة أن يكونوا من مستواها سواء الاقتصاديّ أو الاجتماعيّ أو حتّى الفكريّ، فنحن عن ذلك زواج من نـــوع خاصّ يمكن أن نقول أنّه **زواج طبقيّ** ◆، أين صـــار التجّار يصهرون لبعضهم البعض، والحرفيّون كذلك (1)، كما نجد هذا النّمط من الزّيجات قد أخذ بعـــدا آخر ذو صبغة إثنيّة، أين نجد أنّ العائلات التّلمسانيّة ذات الأصول البربريّة تميل للإصهـــار إلى العائلات التّلمسانيّة البربريّة، وهكذا بالنّسبة للعائلات ذات الأصول العربيّة أو الأندلسيّة أو التركيّة (2)، ولكنّ الغالب هو أنّ هو أنّ هـــذه العائلات على اختلاف أصولها تصهر لبعضها البعض بناء على وجود **مخيال جماعيّ** ◆ تتجسّد ملامحه في **الخريطة الانتمائيّة** ◆ الّتي تطرّقنا لها سابقا في الفصل الأوّل، لذا يمكن القول أنّ هذه المجموعـــة البشريّة المركّبة من أربع **مجموعات صغيرة** ◆ تحكمها في المصاهرات والمبادلات القرابيّة **آليّة القرب** ◆ الّتي تتأرجح بين ما هو طبقيّ من جهة، وما هو إثنيّ من جهة أخرى، وقد تتقاطع ثنايا هذان التّوجّهان في بعض الزّيجات، أين نجدها تتمّ في نفس الطّبقة ونفس الإثنيّة، وهذه عموما معـــالم الاستراتيجيّات القرابيّة فيما يتعلّق بالزّواج داخل المجتمـــع التّلمسانيّ (**الزّواج الدّاخليّ**) الّتي خلصنا إليها من خلال المقابلات.

كما يعرف المجتمع التّلمسانيّ **زيجات خارجيّة** ◆ الغالب عليها أنّها تتمّ مع عناصر بشريّة ذات أصـــول بربريّة (مثل منطقة " **بني صنوس** " (3)، لكن المنطقتين اللّتان حازتا على أكبر قدر من المصاهرات التّلمســـانيّة الخارجيّة هما " **ندرومة** " و " **عين الحوت** " (4)، ولهذا التّوجّـــه الخارجيّ الخاصّ مبرّرات تاريخيّة لا يسعنا المجال للخوض فيها، كما نجد علاوة على ذلك أنّ هذه العائلات تعقد بعض المصاهرات مع عائلات المـــدن الجزائريّة العريقة كـــ " **الجزائر العاصمة** " و " **البليدة** " و " **المديّة** " و " **قسنطينة** " بالدّرجة الأولى (5)، ثمّ تعقبهما من حيث معـــدّل المصاهرات القرابيّة مع المناطق الجزائريّة الأخرى كلّ من مدينتي " **بجاية** "

---

(1) و (2) فكرة وردت في [م] مع الدّكتور " دبب. س ".

(3) فكرة وردت في [م] مع كلّ من الدّكتور " دبب . س " و السّيّد " دبب . ع ".

(4) و (5) فكرة وردت في [م] مع السّيّدة " دلي. ن ".

و " تيزي وزّو " (1)، ثمّ في الأخير وبنسبة حدّ ضئيلة مدينة " وهران " (2)، في حين أنّ المصاهرات مع العنصر العربيّ المستوطن لأحواز " تلمسان " تعتبر نادرة للغاية مقارنة بما هي عليه مع بربر الأحواز (3) الّتي تعتبر هي الأخرى قليلة مقارنة بما عليه الأمر مع " نادرومة " و " عين الحوت " اللّتان تضلاّن منطقتي المبادلات الخارجيّة المفضّلة بامتياز، وممّا هو ملاحظ أنّ حلّ الزّيجات الخارجيّة مع هاتان المنطقتان تصدر عن عائلات ذات أصول بربريّة وأندلسيّة، عكس ما هو مشاهد لدى العائلات التّلمسانيّة ذات الأصول العربيّة والتّركيّة، غير أنّ الغالب على هذه العائلات يبقى في كلّ الأحوال الإصهار لبعضها البعض بناء على خريطتها الانتمائيّة العرقيّة، وتبقى زيجاتها الخارجيّة هذه مقارنة بمجموع الزّيجات قليلة جدّا.

هذه عموما صورة الواقع المبادلاتيّ لدى العائلات التّلمسانيّة قبل أن تطرأ عليه التّغيّرات الّتي ذكرناها سابقا، والّتي حملت بعضا من أفراد العناصر الوافدة على محاولة ربط علاقات قرابيّة مع هذه العائلات كما أشرنا إلى ذلك، فمن هي هذه العناصر الوافدة؟ ولماذا ترفض العائلات التّلمسانيّة عقد مصاهرات معهم؟

من خلال المقابلات الّتي أجريناها تبيّن لنا أنّ البعد الجغرافيّ يحتلّ الصّدارة في تحديد ماهية العناصر البشريّة الوافدة، ذلك لأنّ المقصود منهم هم أولئك الّذين يقطنون أحواز " تلمسان "، وكلّ من لا ينتمي لإحدى العائلات التّلمسانيّة عرقيّا الّتي أوردناها في الجدول بناء على معطيات " المخيال الجماعيّ "، هذا البعد الجغرافيّ الّذي يؤثّر في التّركيبة الاجتماعيّة ومختلف أوجه النّشاط الحياتيّة لدى كلّ من الطّائفتين من لهجة وعادات وتقاليد، الأمر الّذي يستنتج منه أنّ اللّقب العائليّ ليس معيارا للانتماء لإحدى الطّائفتين إلاّ لكونه يدلّ على انتماء ثقافيّ مباين للطّرف الآخر باعتبار أنّ العائلة تعتبر أداة الحفاظ على الخصائص الثّقافيّة لأيّ

(1) فكرة وردت في [م] مع الآنسة " بندي وبس. م ".

(2) فكرة وردت في [م] مع السّيدة " دالي بوسعد. ث ".

مجتمع من المجتمعات وواسطة لنقل هذا الموروث الثّقافيّ للأجيال اللاحقة.

وإذا ما عدنا للحديث عن هذه العناصر البشريّة الوافدة نجد أنّهم ينحـــدرون من أصـــول بربريّة أو عربيّة أو أندلسيّة أو حتّى تركيّة، الأمر الّذي يحملنا على التّســـاؤل عن سبب رفض العـــائلات التّلمسانيّة عقـــد مصاهرات مع عائلات تلك الطّائفة، إذ لو كانت العـــائلات التّلمسانيّة تنحدر من عرق معيّن والعـــائلات الأخرى تنحدر من عرق آخر لقلنا أنّ السّبب واضح، ولكن لمّا اتّضح أنّ هذه العائلات من كلتا الطّائفتين تتقاطع في الأصول، فإنّ سبب عزوف العائلات التّلمسانيّة ذات الأصول العربيّة عن الإصهار للوافدين ذوي الأصول المماثلة، والأمر سيّان بالنّسبة للعائلات التّلمسانيّة ذات الأصـــول البربريّة أو الأندلسيّة أو التّركيّة، وإصهارها لعائلات أخرى من غير أصـــولها يجعلنا نستبعـــد أن تكون خلف هذه الزّيجات الحصريّة أسباب عرقيّة، وإن كان ظاهرها كذلك، وهو ما يجعل تساؤلنا عن تفسير هذه الظّاهرة بعيدا عن الخطاب العـــاميّ الّذي يردّها لأسباب عرقيّة أمرا على درجة كبيرة من الأهمّيّة، وقد سبق أن أشرنا إلى هذه النّقطة في الفصل الأوّل، وعليه فما هو التّفسير الّذي يمكن أن نقرأ بواسطته هذه الظّاهرة؟.

بالرّجوع إلى مضامين المقابلات نجد أنّ السّبب الباعث على نفور العائلات التّلمسانيّة من الإصهـــار للعناصر الوافدة سبب ثقافيّ في جوهره مبطّن بغطاء عرقيّ، حيث تكرّرت في مقابلاتنا الكثير من المؤشّرات الدّالة على ذلك، منها الاستقرار العائليّ الطّويل الأمد بهذه المدينة وما يعقبه من التّشبّـــع بالثّقافة المحلّيّة المميّزة للعـــائلة التّلمسانيّة، وفي هذا السّياق نجد السّيّد " **مالطي. ش** " يقول: " بالنّسبة لي عندما أسمـــع كلمة " تلمسانيّ " فإنّ هذا معناه الانتماء لحضارة عريقة، وكما قال لي أحدهم : " ليس تلمسانيّا من يريد ذلك، بل يجب خمسة قرون حتّى تحصل على تلمسانيّ، تلمسانيّ صميم "، ذلك لأنّ " **تلمسان** " مـــدينة ذات حضارة عريقة، وإذا قيل " تلمسانيّ " فمعناه متحضّر، لذا ليس كلّ من دبّ وهبّ يتحلّى بهذا الانتساب، ذلك – رأيـــه مرّة أخرى – لأنّ التّلمسانيّ لديه سلوكات وعادات تميّزه عن غيره موروثة أبا عن جدّ، ولا يستطيع أن يقلّدها

أو يحمل نفسه عليها من لم ينشأ في البيئة التّلمسانيّة الصّميمة "، وفي نفس السّياق يقـــول السّيّد " ديب .ع " : " في الواقع، أوّل شيء يجعـــل منك " تلمسانيّا " هو سكناك إيّاها، وما يستتبع ذلك من تشرّب للإرث الثّقافيّ والاجتماعيّ واللغويّ المميّز لهذه المدينة، وكلّ ما يميّز إن جاز القول " **الشّخصيّة التّلمسانيّة** "◆ الّتي تتمتّع برابط متين مع تاريخ المـــدينة، والتّاريخ العائليّ الّذي يستقي دلالاته الرّمزيّة من سكنى هذه المدينة ذات الحضارة العريقة..."، كما نحى السّيّد " **بن عصمان**. ر " نفس المنحى في تفسيره لهذه الظّاهرة، أين يقول : " ....، لـــذا لا تميل العائلات التّلمسانيّة لهذا النّوع من الزّواج لأنّه ربّما لا تكون أمّه تلمسانيّة فينعكس ذلك على طبيعة تنشئة هذه البنت أو هذا الولـــد، فلا يكون حينها تلمسانيّا صرفا، والأمر سيّان إذا لم يكن الوالد تلمسانيّا، لـــذا تجد التّلمسانيّين يحبّذونها أو يحبّذونه تلمسانيّا صرفا من جهة كلا الوالدين، لكي يكون متشبّعا بالفكر التّلمسانيّ ".

من خـــلال هذه المقابلات عموما اتّضح لنا أنّ أسباب النّفور بين الطّائفتين تعود بأصولها إلى التّمايز الثّقافيّ على صعيد كلّ من العادات والتّقاليد واللّهجة ... إلخ ، ويعتبر العامل العرقيّ – الوهميّ – أحد عوامل تعميق الهوّة بينهما، الأمر الّذي نستشفّ من خلاله وجود ما سمّاه Jaques Grand'Maison بـــ " **النّرجسيّة الثّقافيّة** "◆* ممزوجة بفوبيا ما يمكن تسميّته " **نكوصا ثقافيّا** "◆ لـــدى العائلات التّلمسانيّة (... تقاليدنا متشابهة، نحن لا نسعى لتعليـــم الآخرين كيف يكونون مثلنا، لأنّه لكلّ قـــوم تقـــاليدهم الخاصّة بهم، نحن

---

* استعمل الباحث هذا المصطلح للحديث عن الواقع العلائقيّ بين أفراد الأسرة المحتفلي الأعمار والجنس، وبالتّالي المحتفلي المكانة، وما يستتبع ذلك منت ترفّع الأعلى مكانة عن أدناه فيما يتعلّق بالتّلقين والتّوجيه وعدم تقبّل نقد تصرّفاته وسلوكاته باعتبارها صورة لما هو مثاليّ، وقد نقلنا استعمالها من الإطار العلائقيّ بين أفراد الأسرة الواحدة إلى إطار علائقيّ أوسع بين مجموعتين من العائلات، أين ترى إحداها نفسها أرقى من نظيرتها.

حريصين على تقاليدنا) (1)، وعليه فإنّ اختيار شريك الحياة الزّوجيّة لـدى هـذه العائـلات يتمّ بناء على الخريطة الإنتمائيّة و " **المجاورة الجغرافيّة** " الضّاربة بجـذورها في التّاريخ الّذي يعكس موروثا ثقافيّا مشتركا، والعامل الاقتصاديّ الّذي يعتبر محوريّا في رسم ملامح " **الكفاءة** " المشترطة بين الزّوجين، في حين أنّ الرّهان الأكبر لهذه الزيجات يبقى الحفاظ على موروثها الثّقافيّ المرتبط عمليّا وبطريقة آليّة باللّقب العائليّ، وبعد هذا لم يبـق لنا سوى معرفة ما إذا كانت هذه الاستراتيجيّات قد عرفت تغيّرا بناء على الحراك الاجتمـاعيّ والدّيمغرافيّ الّذي طال مدينة " **تلمسان** "، وهذا ما سنتطرّق إليه في الفصل اللاّحق.

(1) فكرة وردت في [م] مع السّيّدة " دالي يوسف. ث ".

الفصل الرّابع

العائلة التّلمسانيّة بين الزّيجات الدّاخليّة والخارجيّة:

دراسة نموذجيّة

لقد تطرّقنا في الفصل السّابق للتّغيّرات الّتي مسّت مدينة " **تلمسان** " على صعيد بنيتها الدّيمغرافيّة، والّتي تولّد عنها ظهور طائفتين، الطّائفة الأولى تسعى للحفاظ على تماسكها وتناغمها من خـــلال محاولة الحفاظ على استمراريّة إعادة إنتاج موروثها الثّقافيّ الّذي تعتبر العائلة عماده، أمّا الطّائفة الثّانية فيسعى بعض عناصرها إلى محاولة ربط علاقات مصاهرة مع تلك العائلات الّتي تقابل مثل هذه المحاولات بالصّدّ والرّفض، وهذا ما لمحناه على الأقلّ من خلال المقابلات الّتي أجريناها، فهل الواقع المبادلاتيّ لدى هذه العـــائلات يعتبر تجسيدا عمليّا لمواقفها الرّافضة – على مستوى الخطاب العامّيّ –، أم أنّه مغاير لذلك ؟.

استنادا للمقابلات الّتي أجريناها يتّضح لنا جليّا الإقرار بوجود تغيّرات على مستـــوى الـــواقع المبادلاتيّ لدى العائلات التّلمسانيّة، أو لدى بعضها على الأقلّ، وذلك راجع للتّأثيرات المختلفة الّتي مارست ضغوطها على العائلة كمؤسّسة ذات سلطة، أين نرى بوضـــوح تقلّص الدّور الّذي باتت تلعبه العـــائلة في تسيير شؤون أفرادها، فإذا ما خضنا في الحديث عن المسألة القرابيّة لدى هذه العائلات نجد أنّ الأبوين كانا يرتّبان شؤون زواج أبنائهما، وللتّدليل على ذلك نورد بعض المقاطع المجتزئة من المقابلات الّتي قمنا بها، والّتي تدلّ على سعة نفوذ سلطة الوالدين فيما يرتبط بزيجات الأبناء، ذكورا وإناثا على حـــدّ سواء، فها هي ذي السّيّدة " **دالي يوسف. ث** " تصرّح لنا – بعد أن طرحنا عليها سؤالا يتّصل باختيار شريك الحياة الزّوجيّة كيف كان يتمّ في عهدهم – قائلة: " ...، وسأقصّ عليك كيف منحتني أميّ، ففي زمني أنا وحيلي كان " **الخُطّابُ** " يأتون لطلب يدي، ولكن لم يكن لي أنت أختار، لأنّ والداي هما من رتّبا أمر زواجي، وكان من بين الّذين خطبوني زوجي هذا، أميّ ماذا قالت لي عندما تقدّم لخطبتي؟ قالت لي : " هذا ابن عمّك "، وإن كانت لا تربطني به صلة قرابة فعليّة، إلاّ أنّه ينحدر من أصـــول تركيّة، فكان أن قبلت به، عكس غيره ممّن تقـــدّم ورفضتهم.

لما رفضتهم ؟

لست أنا من رفض، لم أكن أنا من تختار حينها، والدانا هما من يختاران ".

وعندما توجّهنا بنفس السّـؤال للسّيّدة " **ابن عمّار. ل** " أجابتنا قائلة: " اختيار شريك الحياة الزّوجيّة في عهدنا كان الأبوان، كانت الأمّ، أمّ الشّاب الّذي يرغب بالزّواج هي من تبحث له عن الزّوجة المناسبة...".

وها هي ذي السّيّدة " **كلاش . ص** " عنـدما سألناها عمّن كان يقرّر ويرتّب أمـور الزّواج، أجابت: " الوالدين، فإذا ارتضى الوالدان زواجا فما على الأولاد إلاّ السّمع والطّاعة. "، وكذلك كان الأمر مع كلّ من السّيّد " **مالطي. ش** " و " **ديب. ع** " عندما حضنا معهما في هذه المسألة، أين كان جواب الأوّل: " في عهدنا المرأة كان يزوّجها أبوها، وكذلك بالنّسبة للشّاب كان والـداه يختاران له "، في حين كان جـواب الآخر: " ... قديما كانت مصلحة الأسرة كوحدة تحتلّ الصّدارة، وبالتّالي لا يجب أن يضحي الفرد بمصلحة أسرته إذا ما أراد الزّواج، بل عليه أن يأخذ بتوجيهاتها...".

هذه هي الصّورة الّتي كان عليها الواقع المبادلاتيّ لدى مجموع العائلات، أمّا الآن فقد تغيّرت الأمـور، الأمر الّذي يمكن استشفافه من خـلال المقابلات، فها هي السّيّدة " **دالي يوسف. ث** " تقـول في هذا السّياق: " أجل هناك تغيّر، لأنّه اليوم لم يعـد الأبناء ذكورا وإناثا يطيعون أولياء أمورهم فيما يتعلّق باختيار شريك الحياة الزّوجيّة، فاليوم يمكن للبنت أن تصرّح أنّها تعرف شخصا، والـولد يقول نفس الشّيء..."، وكذلك نجد هذا التّوجّه في تصريحات كلّ من السّيّدتين " **دالي. ن** " و " **كلاش. ص** "، إذ تقول الأولى: " لقد صار الأبناء اليوم عتاة، وما عادوا يذعنون لآبائهم فيما يتّصل باختيار أزواجهم "، في حين تقول الأخرى: " اليوم اختلطت الأمور، فإذا أحبّ أحد فتاة – والعكس صحيح – وأصرّ على الزّواج بها ترى الوالـدان يذعنان لرغبته... "، ولا يبعد رأي السّيّد " **ديب. ع** " عن هذا حيث يقول: " ...، أمّا اليوم فقد انعكست الأمور، حيث تحتلّ الفردانيّة الصّـدارة فيما يتّصل باختيار شريك الحياة الزّوجيّة،..."، من هنا يتّضح لنا أنّ الأسرة

التّلمسانيّة اليوم تشهد تغيّرا تحت وطأة جملة من الأسباب، وهذا تماما ما حدث للبنيات القرابيّة والعائليّة في أماكن أخرى من العـــالم، الأمر الّـــذي نجـــد تعليلاته في الاتّجـــاه الأنثروبولوجيّ المتمثّل فيما عرف باسم (**نظريّات التّطوّر ذات الاتّجاه الواحد**) الّتي تذهب إلى القول أنّ (الحضارات البشريّة كلّها تتطوّر حسب نظم وقواعد ثابتة وموحّدة لا تتغيّر باختلاف المكان والشّعوب، هذا يعني أنّ التّنوّع الحضاريّ بين الشّعوب تطوّريّ) (1).

لكنّ هذا التّوجّه لا يشكّل سوى جزء صغير من صورة الواقع القرابيّ لـــدى هذه العائلات، ذلك لأنّ الآباء يزعمون غلبة الفرديّة على قرارات أبنائهم فيما يتّصل بمسألة اختيار شريك الحياة الزّوجيّة، في حين أنّ الأبناء (الشّباب) يفنّدون ذلك، وهـــذا ما نجده جليّا في ثنايا مقابلاتنا مـــع بعضهم، فها هو " **بن عصمان. ر** " عنـــدما سألناه عن معاييره في اختيار شريكة حياته أجابنا: " ... ومن شروط الزّواج لدينا أن تكون البنت منتمية لإحدى هذه العائلات، فإذا خطب لأحدهم يسأل عن الخطيبة : " ابنة من ؟ "، وحتّى أمّها : " ابنة من ؟ "، ونفس الشّيء بالنّسبة للرّجل، فيقال : " قد جاء لخطبة فلانة رجل من عـــائلة فلان وأمّه من عائلة فلان "، فإذا كان ذلك الاسم واردا في لائحة هذه العائلات، مقبـــول، فسيزوّجونه، وإذا لم يكن واردا في اللاّئحة المتعارف عليها فلن يفعلوا بغضّ النّظر عن مكانته الاجتمـــاعيّة والأخلاقيّة، ذلك لأنّ اللّقب العائليّ أمر أساسيّ في المبادلات القرابيّة التّلمسانيّة، لهذا السّبب أنا ما كنت لأحبّ هذه الفتاة لو لم تكن من إحدى هذه العائلات "، ويصرّح أنّ الزّيجات مـــع غير " الحضر " أو " الحضريّات" في معظمها كانت فاشلـــة، وآلت إلى الطّلاق، وهذا نفسه ما يميل إليه السّيّد " **بن قلفاط. ب** "، أين صرّح لنا: " لقـــد وقعت بالفعل زيجات من هذا النّوع، لكن كان مآلها الطّلاق، الأمر الّذي حمل الكثير من العائلات التّلمسانيّة على عـــدم تكرار هذه التّجربة المرّة ".

---

(1) فؤاد إسحاق الخوري، " مذاهب الأنثروبولوجيا وعبقريّة ابن خلدون "، دار السّاقي: بيروت- لبنان، الطّبعة الأولى، 1992م، ص11.

من خلال كلّ مقابلاتنا اتّضح لنا أنّ هذه الزّيجات قليلة جدّا، وهي لدى البنات أكثر منها لدى الذّكور، إذ خشية أن تبقى البنت عانسا (في حالة تجاوزها السّنّ المتعـارف عليها للزّواج) يتمّ تزويجها على مضض، أمّا فيما يتعلّق بالولد فالأمر مختلف، إذ أنّ زواجه بغير " **الحضريّة** " مرفوض رفضا باتّا، وإذا ما حدث ذلك فغالبا ما تتخذ ضدّه إجراءات صارمة تصل إلى حدّ قطع العـلاقات العائليّة معه كلّيّا وإقصائه من الإرث، لـذا فإنّ الغالب عليهم هو مراعاة العرف والتّزول عند تطلّعات الـوالدين، بيد أنّ هـذا لا يعني انعـدام حالات زواج يختار فيها الابن زوجة من العناصر الوافدة، ولكن يمكن القول أنّها حالات قليلة.

هذه عموما الملامح الّتي تسنّى لنا استخلاصها من مجموع المقابلات الّتي قمنا بها، على أنّ هذا غير كاف في نظرنا لمعرفة الواقع المبادلاتيّ لـدى العائلات التّلمسانيّة الكبيرة، ذلك لأنّها تبقى مجرّد آراء تعكس تجارب شخصيّة تتقاطع في تقرير بعض الأمور، دون أن يكون لها من المبرّرات ما يكفي لتأكيدها والأخذ بها كمادّة خامّ للتّحليل وتقرير الوقائع على ما هي عليه فعليّا، لذا سعيا منّا إلى التّعمّق أكثر حـاولنا استثمار معطيات المادّة الأرشيفيّة، فكان أن زوّدنا السّيّد " **باي عمر . م** " بشجرتهم العائليّة (انظر الملحقين الثّالث والرّابع) الّتي تعتبر مادّة توثيقيّة على درجة عالية من الأهمّيّة يمكن من خـلالها تأكيد بعض النّقاط المتعلّقة بالـواقع المبادلاتيّ التّلمسانيّ أو تفنيدها أو توضيحها أكثر.

من خـلال محاوراتنا مع السّيّد " **باي عمر. م** " تبيّن لنا أنّه عمد إلى إنشـاء هذه الشّجرة – الّتي كلّفته 10 سنوات من البحث والتّنقيب – بهدف معرفة الطّبقات التّاريخيّة للأسـلاف، وغالبا (عندما ترسم الشّجرة لتعبّر عن الطّبقات التّاريخيّة، فإنّه يمكن للباحثين استثمارها من أجل إجراء دراسـة اجتماعيّة للعلاقات الّتي

تنشأ بين الأفراد، من علاقات اقتصاديّة و تجاريّة أو علاقات مصاهرة وما إلى ذلك) (1) ، وقد اعتمـــد في إنجازها على جملة من المصادر منها وثائق شرعيّة (عقود زواج) من مقتنيات العائلة تعـــود للحقبة العثمانيّة (انظر الملحقين الخامس والسّادس)، الّتي تعتبر عامل مصداقيّة يدعم صحّة المعطيات الواردة في هذه الشّجرة.

1/ إعادة صياغة معطيات الشجرة وتحليلها:

من خلال النّظر إلى المعطيات والبيانات الواردة بهذه الشّجرة يتّضح أنّها تندرج تحت إطار مـــا يعرف في علم الأنســـاب وأنثروبولوجيا القرابة باسم " **الشّجرة المزدوجة** "، وهي (الّتي تذكر فيها أسمـــاء الزّوجات والأخوات، وإن كان التّسلسل يحتفظ بالنّظام الذّكريّ، والّتي يمكن مدّها عن طريق ذكر المصاهرات الحاصلة مع عائلات أخرى) (2).

إنّ هذه الشّجر ة العائليّة تتكوّن من ثلاثة فروع رئيسيّة، وقد عمدنا إلى صياغة معطياتها على شكل جداول أين عقدنا لكلّ فرع منها جدولين أحدهما للنّســـاء والآخر للرّجال حتّى يتسنّى لنا فيما بعـــد معالجة طبيعة مصاهراتها بشقّيها الخارجيّ (النّساء) والـــدّاخليّ (الرّجال) عن طريق مقارنتها بجدول الألقـــاب الّـــذي أوردناه في الفصل الأوّل، وها هي ذي الجداول تبعا للفروع الثّلاث:

---

(1) د/ عمـــاد محمّـــد العتيقيّ، " دليـــل إنشاء وتحقيق سلاســـل الأنساب "، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنـــون والأدب- الكويت، الطّبعـــة الأولى، 2001 م، ص 30 بتصرّف.

(2) المرجع السّابق، ص 27 بتصرّف.

جدولي الفرع الأوّل " نسل أحمد "

(أ) الجدول الخاصّ بالنّساء

النساء	الأزواج
خذوجة	عبّاس عبد السّلام
هيبة	بوعناني عبد الرزّاق
عبلة	مالق عبد الرزّاق

من خلال مقابلتنا مع السّيّد " **عبد الرّحيم بن منصور**" علمنا أنّ عائلة " **عبّاس** " هي إحدى فروع عائلة " **بن منصور** "، أمّا عائلة " **بوعناني** " فهي أندلسيّة الأصول (1)، أمّا عائلة " **مالق** " فمن خلال حديثنا مع السّيّد " **مالق عبد الرّزّاق** " اتّضح لنا أنّها من العائلات الأندلسيّة الّتي نزحت لـ "**مستغانم**"، ولعلّها من مدينة "**مالقة**" الإسبانيّة.

(ب) الجدول الخاصّ بالرّجال

الرّجال	الزّوجات
أحمد	بوعبّاد. ع
حمّادي	باي عمر. ف
أحمد	؟
علاّل	دويدي. ح
	مكّي. ع
عزّ الدّين	بريكسي. ف

إنّ كلّ الألقاب الواردة بهذا الجدول وردت بالخريطة الانتمائيّة عدا " **مكّي** " وهي عائلة سنوسيّة حسب ما أخبرتنا به الآنسة " **أدّار .ف** " المنحدرة من تلك المنطقة.

(1) http://andalus.dbzworld.org/

جدولي الفرع الثّاني (نسل بومدين)

(أ) الجدول الخاصّ بالنّساء

النساء	الأزواج
منصورية	بندي حاجي مصطفى
فاطمة	بوخالفة أحمد
	بوكلي حسان
	طرّاح محمّد
يمينة	باني حسّي
خديجة	بوكلي حسان أحمد
عويشة	قوار بوزيّان
يمينة	قوار حبيب
فاطمة	بوعيّاد دبّاغ حبيب
زهرة	قوار هاشمي
نسيمة	علاّل
فريدة	بن حبيب عبد الحقّ
خيرة	غمري سيد أحمد
منصورية	مرزوق محمّد حمدان
نسرين	قهواجي عمر
فايزة ريم	حاج سليمان لطفي
ابتسام	عيّاد أمين موفّق
فاطمة	غماري سيد أحمد
فتحيّة	بوعيّاد دبّاغ محمّد
جيهان	مسعودي عبد الرحيم

في هذا الجدول الخاصّ بالنّساء نلاحظ وجود ثلاثة ألقاب لم ترد بـــ "**الخريطة الانتمائيّة** "، وهي: طرّاح، عيّاد، ومحمودي، وفيما يتعلّق بالأوّلين فالرّاجح أنّهما من أصول أندلسيّة، إذ في حوار لنا مع الأستاذ " ديب. س " علمنا أنّ كثيرا من الألقاب الأندلسيّة تأتي على صيغة " فعّال " ، أمّا ما يتعلّق بعائلة " محمودي " فليس لدينا معلومات عنها.

(ب) الجدول الخاصّ بالرّجال

الرجال	الزوجات
بومدين	قوار.ع
محمد	باي عمر. ز
عبد القادر	باي عمر. ف
بومدين	فاطمة
محمد	بوكلي حسان. ح
محمد	آغا بن عبد الله
	عبورة. مخ
تيجيني	زياني كريتلي. ش
	بن حبيب. ن

جيلالي	طالب بن دياب. ص
أحمد	بوكلي حسان. ر
عبد الوهاب	بوكلي حسان. ل
محمد رضا	بلدران
منير	بن منصور. ح
	عزوني. ش
بومدين	حمّوش. ر
عبد الجليل	قوار. م
بن عودة	أوفرحة. م
عبد الحفيظ	صالح بلخوجة. ف
	أوشار. ع
جمال	بادسي. ف

عاصم	الشريف بن موسى
سمير	سنوسي بريكسي. ن

في هذا الجدول هناك ثلاثة ألقاب لم ترد في الخريطة الانتمـــائيّة هي: " **حمّوش** " و " **أوفريحـــة** " و " **أوشار** "، وقد ذكر لنا الأستاذ " **ديب. س** " أنّ من بين خصائص الألقاب البربريّة كونها تنتهي بـــ " **وش** " كما تبتدأ بـــ " **تا** "، " **تيـــ** "، " آ "، " أو "، **وعليه** فكلّ من لقبي "**حمـــوّش** " و" **أوفريحة** " يحيل إلى أصول بربرية، أمّا " **أوشار** " فهي عائلة تركيّة كما ورد في إحدى الأشرطة الوثائقيّة بقناة " **التركيّة** ".

جدولي الفرع الثّالث " نسل بن عودة "

(أ) الجدول الخاصّ بالنّساء

النساء	الأزواج
بدرة	حمي الحاج محمد بودينة بندير اد
يمينة	محمد مكي
منصورية	بندي حسان محمد
فاطمة	؟
حنيفة	طالب بن دياب ماحي محمد
عائشة	بن صديق الهاشمي
منصورية	باي عمر حسين

ثورية	سراج محمد
حنيفة	مولاي عبد القادر
نوال	حجار سيد أحمد
عويشة	بن حبيب محمد
	زمولي مراد
هيبة	فنام نصر الدين
آمال	الهادي
نادية	فكّاي عبد القادر

في هذا الجدول نلاحظ أنّ الألقاب الّتي لم ترد في " **الخريطة الانتمائيّة** " هي : "مكّي " من " **بني سنوس** " كما سبق وان ذكرنا ذلك، و " **بن صدّيق** " و " **سرّاج** " و" **مـــولاي**" و " **حجّـــار** " و " **فهّام** " و " **فكّاي** "، وقد سبق وأن ذكرنا ما يتعلّق بالألقاب الّتي على وزن " **فعّال** " ، و لم يبق لنا سوى " **بن صدّيق** " الّتي ليس لدينا عنها ما نرتاح لإيراده هنا.

الرّجال	الزّوجات
بن عودة	؟
بن علي	حفيز منيرات

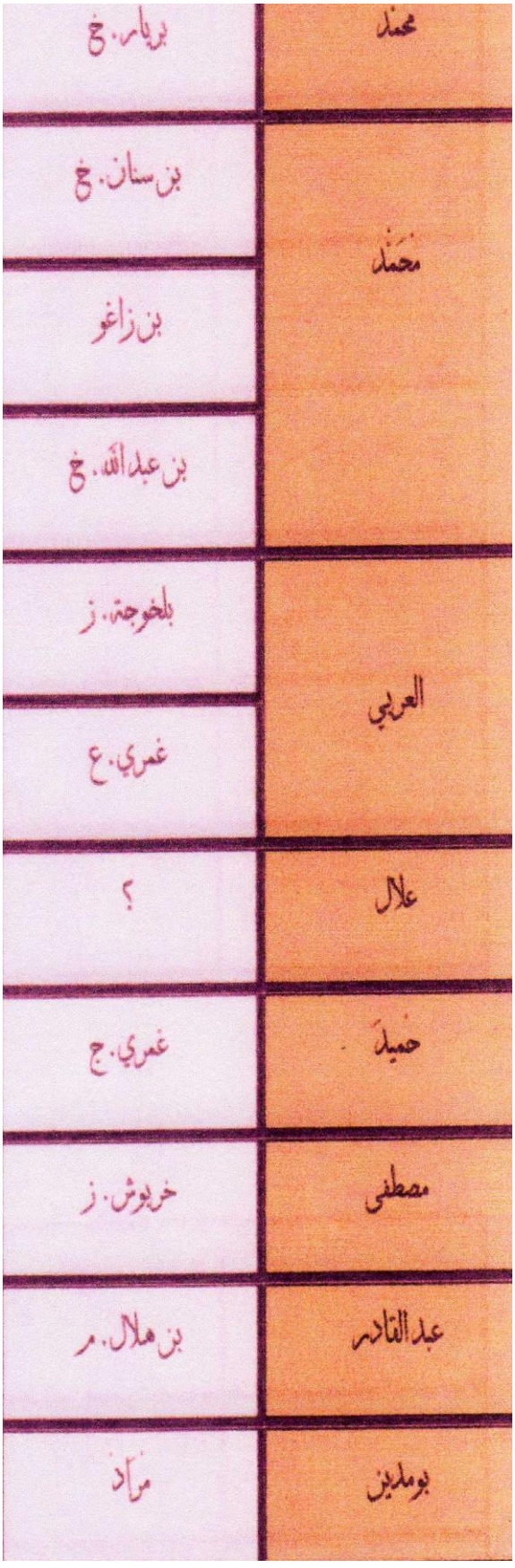
محمد
بريار. خ
محمد
بن سنان. خ
بن زاغو
بن عبد الله. خ
العربي
بلخوجة. ز
غمري. ع
علال
؟
حميد
غمري. ج
مصطفى
خريوش. ز
عبد القادر
بن هلال. م
بومدين
مراد

بن سنان. ج
محمد
ثابتي. ز
حاج علال. ف
محمد
حسابن. خ
الحسين الغازي
باي عمر. م
بن علي ابراهيم
ثباع. ج
العربي حسان
بن عزي. ف
عبد الرحيم
بوعياد دباغ. غ
عبد المجيد
بن حبيب. خ
فاروق
عزيز نصيرة
محمد
بن شريف. ص
حسين
غماري. ز
عبد القادر
بن صالح. خ

عبدالمغيث	بن ترارى. ن
عبدالصمد	هادف. ف
محمد	؟
محمّد	؟
رياض	؟
سليم	؟

في هذا الجدول نلاحظ أنّ الألقاب الّتي لم ترد في" **الخريطة الانتمائيّة** " هي: " **حفيز** " و" **خربوش** " و " **نابي** " و " **تبّاع** " و " **بن عزّي** " و " **عزيز** " و " **بن صالح** " و " **بن تراري** " و " **هادف** " ، فالأولى مسيحيّة كما أخبرنا صاحب الشّجرة، أمّا الأخرى فقد أوردنا بعض من خصائص الألقاب الّتي تنطبق عليها، والّتي لا تنطبق عليها ليس لنا عنها معلومات يقينيّة إلاّ ما كان من عائلة " **عزيز** " **الحوتيّة** " الأصل أو " **بن تراري** " الّتي تنحدر من جبال " **ترارة** " بالقرب من " **تلمسان** ".

لقد تمّ استخلاص هذه الجداول من المعطيات الواردة في الشّجرة العائليّة، ولكن لم نورد كلّ الأفراد المذكورين فيها، بل اقتصر اهتمامنا على المتزوّجين منهم فقط، الرّجال منهم والنّساء على حدّ سواء، فكان أن حصلنا على 62 رجلا متزوّجا و 35 امرأة متزوّجة.

تجدر الإشارة قبل الخوض في التّعامل مع المعطيات الواردة في كلّ من الشّجرة والجداول أن نلفت الانتباه إلى أنّه بناء على استقراء شجرات عائلات أخرى يمكن القول أنّ وصفنا للعائلات التّلمسانيّة بكونها كبيرة ليس مردّه إلى تعداد أفرادها، بل مردّ ذلك هو تمتّعها بـ " **رأسمال رمزيّ** " كبير ناجم عن تراكمات متعدّدة الأصناف، الأمر الّذي جعلها تتمتّع بامتيازات على صعيد التّصنيف الاجتماعيّ.

لقد سبق وأن أشرنا إلى أنّ العائلات التّلمسانيّة الكبيرة تحتكم في مصاهراتها إلى ضوابط عرفيّة يحتلّ فيها الاسم العائليّ الصّدارة كمعيار للمبادلات القرابيّة، وعمدنا من خلال الاستبيان إلى محاولة رسم ما سمّيناه بالخريطة

الإنتمائيّة الّتي تحتوي على ألقاب العـــائلات التّلمسانيّة المكوّنة للظّاهرة الّتي ندرسها، عـــلاوة على ذلك فإنّ المقابلات أتاحت لنا فرصة استخلاص مجموعة من النّتائج المهمّة والّتي على رأسها نجـــد الإقرار بوجود تغيّرات على صعيد نطاق المبادلات القرابيّة لـــدى هذه العـــائلات نتيجة التّغيّرات الدّيمغرافيّة وغيرها الّتي شهدتها هذه المدينة، وعليه استنادا لهذه المعطيات نتساءل ما إذا كانت هذه الشّجرة – والجـــداول طبعا – ستؤيّد المعطيات الّتي أشرنا إليها أو تفنّدها، أو ستكون مصحّحة لبعض الأفكار المتـــداولة عاميّا في الوسط التّلمسانيّ على أقلّ تقدير.

قلنا أنّ عدد الرّجال المتزوّجين في هذه الشّجرة هو 62 رجلا، وقد بلغ التّعداد الإجماليّ لزيجات هـــؤلاء الرّجال 74 زواجا، باعتبار أنّ بعضهم تزوّج أكثر من مرّة، وكـــذلك الأمر بالنّسبة للنّســـاء حيث ذكرنا أنّ عـــدد المتزوّجات منهنّ 35 امرأة، لكنّ تعداد زيجاتهنّ الإجماليّ هو 38 زواجا، وقد عمدنا إلى تقسيم هذه الزّيجات بناء على رجوعنا للخريطة الإنتمائيّة إلى ثلاثة أقسام هي:

أ/ الزّيجات الدّاخليّة: أين يتزوّج الرّجل أو المرأة من شخص ينتمي لإحـــدى العائلات الـــواردة في جدول الخريطة الإنتمائيّة الّتي أوردناها في الفصل الأوّل.

ب/ الزّيجات الخارجيّة: أين يتزوّج الرّجل أو المرأة من شخص لا ينتمي لإحدى العائلات الواردة في جدول الخريطة الإنتمائيّة الّتي أوردناها في الفصل الأوّل.

ج/ زيجات غير محدّدة: نظرا لكون الاسم العـــائليّ لشريك الحياة الزّوجيّة ذكرا كان أم أنثى ليس واردا في الشّجرة، بل كلّ ما هو وارد ينحصر في الاسم الشّخصيّ للزّوج أو الزّوجة.

بالرّجوع إلى هـــذا التّقسيم نرى أنّ عدد الزّيجات الـــدّاخليّة لدى الرّجال هو 45 زواجا، في حين أنّ الزّيجات

الخارجيّة لديهم عددها 21، أمّا الزّيجات الغير محدّدة فعددها هو 8، أمّا بالنّسبة للنّساء فعدد زيجاتهنّ الـدّاخليّة هو 23، والخارجيّة هو 13، في حين أنّ عدد غير المحدّدة هو 2.

والجدول التّالي يلخّص النّسب الّتي تتعلّق بكلّ نوع من أنواع الزّيجات الّتي تطرّقنا لذكرها:

نوع الزيجات	الداخلية	الخارجية	الغير محددة
الرجال	% 60,81	% 28,37	%10,81
النساء	% 60,52	% 34,21	% 5,26

إنّ أوّل شيء يمكن استخلاصه من هذه المعطيات هو وجود مبادلات قرابيّة فعليّة خارج نطاق الخريطة الإنتمائيّة، لدى الرّجال والنّساء على حدّ سواء ممّا يدلّ على أنّ الفكرة الشّائعة عن كون الرّجال خاضعين لتأثير وضغط كبيرين – من قبل أسرهم – فيما يتعلّق باختيار شريك الحياة الزّوجيّة، والّتي بموجبها تعتبر زيجات الرّجال الخارجيّة نادرة غير صائبة، استنادا إلى الواقع المبادلاتيّ لدى هذه العائلة على أقلّ تقدير، وإن كنّا نعتقد أنّ مثل هذه الحالة يمكن معاينتها لدى عائلات أخرى، غير أنّه لا يمكن الفصل قطعيّا في هذا الأمر لوجود نسبة غير محدّدة من الزّيجات الّتي لو كانت معلومة لتمّ بها التّرجيح الجازم لصالح أيّ نوع من الزّيجات تميل هذه الأسرة، ولو أنّ النّسب المتحصّل عليها ترجّح الضّرب الأوّل منها على كلّ حال.

ثمّ إنّه استنادا للعدد الإجماليّ للرّجال المتزوّجين مقارنة بذلك المتعلّق بالنّساء يتّضح أنّ الشّجرة العائليّة هذه تتّجه نحو الاتّساع من جهة النّساء – اللّاتي تعدادهنّ يكاد يكون نصف تعداد الرّجال –، والانغلاق من جهة الرّجال، إذ لو كان عدد النّساء المتزوّجات قريبا من عدد الرّجال المتزوّجين لكان من المرجّح أن يرتفع عدد

زيجاتهنّ الخارجيّة ليفوق بذلك نظيره لدى الرّجال بنسبة أكبر ممّا هي عليه.

وهناك نقطة أخرى على درجة كبيرة من الأهمّيّة تتمثّل في كون الزّيجات الخارجيّة لـــدى أفراد هـــذه العائلة – الرّجال والنّساء على حدّ سواء – ليست حديثة العهد، بل إنّ بعضها يعود إلى أواســـط القرن التّاسع عشر (1849 م مثلا)، ممّا يدلّ على أنّ هذا النّوع من الزّيجات لدى العائلات التّلمسانيّة – قياسا على هذه العائلة – ليس وليد التّغيّرات الدّيمغرافيّة المتسارعة الّتي تشهدها هذه المدينة، غير أنّه على العموم تبقى **الزّيجات الدّاخليّة ◆** المستندة للعرف هي الغالبة في معظم حالات العـــائلات التّلمسانيّة، وحتّى **الزّيجات الخارجيّة ◆** تمّ إخضاعها لمجموعة من الضّوابط استجابة لمجموعة من المتطلّبات والمصـــالح، فهي على هـــذا الاعتبار ليست عشوائيّة بل انتقائيّة من الدّرجة الثّانية، نظرا لكون أفضل الزّيجات الإنتقائيّة لديهم هي ما كانت متناغمـــة مع مستلزمات العرف المبنيّ على الخريطة الإنتمائيّة، كما أنّ هناك – من خـــلال ملاحظاتنا لـــواقع المبـــادلات القرابيّة التّلمسانيّة – اختلافا في درجـــة انغلاقيّة العـــائلات التّلمسانيّة الكبيرة هذه، ودرجة الإنغلاقيّة هذه هي الّتي ستحدّد ملامح وطبيعة الحراك الاجتماعيّ على مدى العقود أو حتّى القرون المقبلة.

إنّ نقطة المعايير الإنتقائيّة في اختيار شريك الحياة الزّوجيّة هـــذه، هي مـــا يعبّر عنه بطريقة أخرى باسم " **الكفاءة** "، والّتي بناء عليها نستخلص أنّ العائلات التّلمسانيّة ترى " **الكفاءة** " درجات، أين تحتلّ " **كفاءة النّسب** " الصّدارة، ثمّ تعقبها أنماط و أنـــواع أخرى من " **الكفاءة** " منها " **الكفاءة الاجتماعيّة** " الّتي تعتبر مقاربة تبادليّة يتمّ بموجبها مقـــارنة مكـــانة كلّ من الزّوجين في مجتمعهما، فالتّلمسانيّة لا تزوّج إلاّ لمن كان وجيها في قومه، إن حدث وزوّجت شخصا غير كفؤ لها في النّسب، ولا نعتقد أنّ النّظرة ذاتها تنطبق على الرّجل، فالأمور على مستواه أكثر تعقيدا لأنّها مرتبطة بـــ " **مساحة المبادرة** " الّتي يمتلكها والّتي تعتبر واسعة مقارنة بتلك الّتي تمتلكها المرأة، نظرا لكون هذا المجتمـــع مجتمعا " **أبويّا** " أو " **بطريكيّا** "◆، إذ يكفي أنّ " الخطبة " بيده، لذا يجب عليه أن يستثمر هذه المساحة بما يتلاءم مع تطلّعات العائلة من خـــلال انتهاج سبيل " **كفاءة النّسب** "، فإن نزل إلى ما دونها فإنّ العائلة لن تتساهل معه، ولن تعامله مثل معاملتها للبنت في هذه

الحال.

ولكن بما أنّ بعض الأفراد – ذكورا وإناثا – من العديد من هذه العائلات، تزوّجوا زيجات خارجيّة، فإنّنا ومن خلال محادثاتنا مع بعض منهم أو من أقاربهم أو معارفهم لاحظنا وجود " آليّة التّبرير "◆ الّتي تهدف إلى شرعنة مخالفة العرف السّائد، أين نستشفّها في الكثير من الجمل الّتي يحمل بعضها طابعا دينيّا : " **إِيْوَا لْمَكْتُوبْ، لْمَكْتُوبْ لاَهُمْ** "، " **وَاسْمْ تْأُولُوا، رْبِّي حَبَّ دَاكْ شِّي** "، اجتماعيّا : " **عْلَى كُلّ حَالْ حَتَّى مَبْلَدِينْ، يِفْهَمُونَا وْنْفْهَمُوهُمْ** "، أخلاقيّا : " **فْ لْحَا لْبَتْ مْسَخْرَتْ، مَا يْدُومْ غِيلْ رْبِّي** "، " **وَاجْلْهَا عَاوْنْ وْمْرْبِّي وْمَا رَاهْشْ غَابْتْهَا** "، اقتصاديّا : " **إِيْوَا رْأَجْلْ اللِّي طَاحْتْ فِيهْ بْلاَصْتُو** "....، وهذا الأمر وغيره من الأمور الّتي تطرّقنا لذكرها في الفصول السّابقة سنعمد إلى التّعمّق في شرحها والرّبط بين جزئيّاتها حتّى نصل إلى رسم أبعاد هذه الظّاهرة رسما يستتبعه الوصول إلى قراءة أنثروبولوجيّة تستنطق ما هو مستتر خلف المظاهر المعاينة، والّذي هو أعمق في دلالاته من التّفسيرات السّطحيّة والعابرة الّتي يسوّقها الخطاب العاميّ الجاهل بالكثير من الحقائق والخلفيّات المحرّكة فعليّا لعجلة هذه الظّاهرة الاجتماعيّة.

الفصل الخامس

القراءة الأنثروبولوجيّة للإستراتيجيّات القرابيّة التّلمسانيّة

لقد توصّلنا في الفصـــول السّابقة إلى استخلاص مجموعة من النّتائج بالرّجوع إلى مصادر مختلفة واستعمال أساليب بحث متنوّعة، ولكنّنا لم نعمد إلى تحليلها تحليلا معمّقا، لذا فإنّنا سنخصّص هذا الفصل لتحليل هذه المعطيات والنّتائج المكوّنة للظّاهرة الاجتماعيّة المتعلّقة بالمبادلات القرابيّة لـــدى العائلات التّلمسانيّة الكبيرة، بيد أنّه قبل الخوض في التّحليل لا بدّ أن نعرض لأهمّ النّقاط الّتي توصّلنا إلى تقريرها فيما سلف من الفصول:

••

أ/ رجوع معظم العائلات التّلمسانيّة بأصولها إلى العنصر التّركيّ، ولو أنّ البحث التّاريخيّ المعمّق يفنّد ذلك.

ب/ وجود خريطة انتمائيّة عرفيّة يحتكم إليها في عقد المصاهرات.

ج/ التّغيّرات الدّيمغرافيّة بمدينة " تلمسان " أدّت إلى نشوء نزعة تمايزيّة – وإن كانت موجودة سلفا، إلاّ أنّها كانت كامنة لوجود فواصـــل نطاقيّة – بين طائفتين: الحضر/ البدو، أين يعتبر " الحضر " أنفسهم أتراكا والطّرف الآخر عربا، والعكس صحيح بالنّسبة للآخرين.

د/ سعي بعض من العناصر الوافـــدة عقد مصاهرات مع " الحضر"، ووجـــود مقاومة ورفض لمثل هذه المصاهرات من قبل " الحضر"، ولكن رغم ذلك نلاحظ انعقاد بعض من هـــذه المصاهرات الّتي يمكن تسميّتها بمسمّيات مختلفة مثل " **الزّيجات الخارجيّة** " أو " **الزّيجات المختلطة** "◆...إلخ.

هنا نتساءل عن التّحليل الّـــذي يمكن إعطائه لكلّ نقطة من هذه النّقاط، مع الأخذ بعين الاعتبار تـــداخل بعضها ببعض تداخلا عضويّا، حيث أنّ تحليل إحداها يسهم بطريقة لا جـــدال فيها في إلقـــاء الضّوء على جوانب مبهمة من نظيراتها، واجتمـــاع التّحليلات الجزئيّة المعطاة لكلّ منها يعطينا في نهاية المطاف تحليلا شاملا ذو أبعاد تعدّديّة (المنهج التّكامليّ) لهذه الظّاهرة.

فيما يتّصل بالنّقطة الأولى نقول أنّ انتساب هذه العائلات للعنصر التّركيّ يرجع لعاملين إذا توفّر أحـــدهما تولّد عنه الآخر في معظم الأحيان، فالعامـــل الأوّل هو العـــامل السّياسيّ المتمثّل في غلبة الأتراك على هذه

البلاد في العهـــد العثمانيّ وانقيادها لهم، وهذا العامل يؤثّر غالبا في نفسيّة المنقادين، ذلك لأنّ (النّفس أبدا تعتقد الكمـــال فيمن غلبها وانقادت إليه: إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لـــما تغالط به من أنّ انقيادها ليس لغلب طبيعيّ إنّما هو لكمـــال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتّصل لها حصل اعتقـــادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبّهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه، والله أعلم، من أنّ غلب الغالب لها ليس بعصبيّة ولا قوّة بأس، وإنّما هو بما انتحلته من العـــوائد والمـــذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأوّل، ولذلك ترى المغلوب يتشبّه بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحـــه في اتّخاذها وأشكالها، وبل في سائر أحواله،....، وانظر إلى كلّ قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زيّ الحاميّة وجند السّلطان في الأكثر لأنّهم الغالبـــون لهم، حتّى إنّه إذا كانت أمّة تجـــاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التّشبّه والاقتـــداء حظّ كبير) (1)، وهـــذا ما ذهب إلى تقريره العـــديد من علمـــاء النّفس والاجتماع، وليس من الضّروريّ أن تكون الغلبة عدديّة، بل قد تكون ثقافيّة وهي أشدّها وطأة كما سنوضّحه في النّقطة اللاّحقة بالاعتمـــاد على الدّيالكتيّة الثّنائيّة: **مهيمن- مهيمن عليه ◆** الّتي تبنّاها **"بيير بورديو"** في تحليله للتّفاعل الاجتماعيّ.

أمّا النّقطة الثّانية المتعلّقة بما سمّيناه **" خريطة التماثيّة "**، فقد ذكرنا فيما سلف أنّها تولّدت نتيجة تراكمات سوسيو- تاريخيّة، وأنّها وليدة مصاهرات بين كلّ من البربر والعرب والأندلسيّين والأتراك الّذين استوطنوا هذه المدينة، لكن ما لم نذكره هو أنّ النّصيب الأكبر في تكوين هذا المخيال يعـــود للأندلسيّين، بما في ذلك ثنائيّة: نحن (" الحضر ") / الآخر (" العناصر الـــوافدة " ، " البدو "، ... إلخ)، وقـــد نسبت للأتراك لكون هؤلاء عقدوا مصاهرات كثيرة مع النّازحين الأندلسيّين لما رأوا من حسن استعداداتهم

(1) ابن خلدون (عبد الرّحمن)، " المقدّمة "، دار الفكر للطّباعة والنشر لا والتوزيع: بيروت – لبنان، الطّبعة الأولى، 1424 هـ- 2004 م، ص161.

الفكريّة والإداريّة، وقد أورد هذه الحقيقة التّاريخيّة الكثير من الكتّاب والمؤرّخين الّذين نستشفّ من كتاباتهم أنّها غير مقتصرة على مدينة " **تلمسان** " فقط، بل تشمل كلّ المدن الكبيرة بالجزائر مثل " **الجزائر العاصمة** " و " **المديّة** " على سبيل المثال لا الحصر، فقد أورد " **حمدان بن عثمان خوجة** " في هذا الصّدد في معرض حديثه عن مدينة الجزائر وسكّانها أنّ (أجسام الجزائريّين رشيقة، ذلك أنّ امتزاج العنصر التّركيّ بالعنصر الأندلسيّ قد أنتج عنصرا مختلطا من النّوع الرّفيع) (1)، أمّا " **المديّة** " فنحيل في تقريرنا لـــواقعها المبادلاتيّ القارئ للملحق السّابع حتّى يعاين بنفسه وجود مثل هـــذه المبادلات بين العنصرين، ونحن نعتقدّ أنّها هي الأخرى كانت ذات نسبة معتبرة، والأمر كذلك ينطبق على مدينة " **تلمسان** " مجال دراستنا، كما صاهر الأتراك كـــذلك كلاّ من العرب والبربر، وكذلك فعل الأندلسيّـــون، ولمّا كان في معظم الأحيان الآباء أتراكا، وكانوا من ناحيـــة تنظيمهم القرابيّ ينسبون الابن لأبيه، فقد صـــارت ذرّيتهم لهـــذا السّبب تنتسب للأتراك، وعليه فمسألة الزّيجات الحصريّة هذه ذات بعدين، فالبعد الظّاهر منها هو البعد العرقيّ على اعتبار أنّها سلوك ينتهجه الأتراك إزاء العناصر البشريّة الأخرى، وهذا هو الشّائع في الخطاب العاميّ، أمّا البعد الفعليّ لهذه الظّاهرة فهو بعد ثقافيّ كان موجودا لـــدى سكّان " **تلمسان** " من عرب وبربر حتّى قبل مقدم الأتراك، أين كانوا يرون أنفسهم حضرا وغيرهم إمّـــا "**حوزا** "، أي القاطنين بأطراف المدينة وما دون ذلك، أو بدوا، ثمّ عمّق أهل الأندلس من هذه الظّاهرة عند استقرارهم بالمدن الإفريقيّة، حتّى أنّهم كانـــوا ينظرون للحضر من عرب وبربر على أنّهم أقلّ باعا منهم في الحضارة، فما بالك بما عداهم من ساكنة الرّيف وأهل الانتجاع من البدو.

---

(1) حمدان بن عثمان خوجة، " المرآة "، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع: الرّغاية – الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1982 م، ص105.

لقد وفدت بعض الجاليات الأنـــدلسيّة لبلاد المغرب قبل مجيء العثمانيّين بقرون، وعملت على الحفاظ على خصائصها بالانغلاق على نفسها، وقد قرّر هذا الأمر العـــديد من الكتّاب من بينهم " **محمّد الطّالبيّ** " أين يقول في وصف هولاء الأندلسيّين : " لكنّ الشّيء الّذي لا شكّ فيه هو أنّ هـــذه الجالية لم تكن ميّالة إلى الانصهار في الوســـط الإفريقيّ، ذلك أنّ أفرادها كانوا يشعرون باللّحمة الّتي تربط بينهم، لحمة الأقلّيات المنبثّة والمنتقلة إلى أرض غير أرضها، فهم – وإن تزاحموا أحيانا فيما بينهم بضراوة على المناصب – احتفظوا بتقاليد وعادات تكون بينهم نسبا، وتجعلهم لا يختلطون كثيرا بغيرهم، ولعـــلّ من أهمّ العوامل الّتي عاقت دون الاختلاط والامتزاج وانصهار الفـــوارق الحضاريّة الّتي كانت تكوّن حاجزا يزيد ويقلّ عمقا واتّساعا باختـــلاف الطّبقات، والثّروات، والأذواق وأساليب التّربيّة، وكان الأندلسيّون يعتبرون أنفسهم أرقى حضارة، وألطف أخلاقا، وأدمث طباعا من أهل البـــلاد الّتي انتقلوا إليها اضطرارا لا اختيارا، بل إنّ ظنّهم كان سيّئا بالأفارقة، حتّى في بلاطهم وخلفائهم، وكلّ هذه العـــوامل عملت دون التّزاوج والتّصاهر بينهم وبين أهـــل البلاد، وهكذا احتفظ الأندلسيّـــون، بعد عشرات السّنين من هجرتهم، بل بعد قرون، بذاتيّتهم وسماتهم وخصائصهم." (1).

ولكنّ أندلسيّو " **غرناطة** " ومن بعدهم " **الموريسكيّون** " تصاهروا مع الأتراك بسهـــولة اعترافا وإقرارا بما بذلـــه الأتراك في سبيـــل نجـــدتهم، والتّسهيلات الّتي منحوها إيّاهم على أراضي الإيالتين " **التّونسيّة** " و" **الجزائريّة** "، كأن ألغوا عنهم عبء الضّرائب وأقطعوهم الأراضي تنفيذا لمـــا جاء في " **الفرمانات** " السّلطانيّة من أوامر تحثّ على الرّفق بهم بعد نكبتهم، كما صـــاهروا عرب المـــدن وبربرها، وكذلك فعل الأتراك.

---

(1) محمّد الطّالبي، " الهجرة الأندلسيّة إلى إفريقيّة أيّام الحفصيّين "، مجلّة " الأصالة "، العدد 26، مطبعة البعث: قسنطينة – الجزائر، السّنة الرّابعة: جويلية- أوت 1975 م، ص 78.

إنّ المصاهرات الّتي قامت بين العناصر الأربعة هذه تيسّرت لكونهم كلّهم كانوا من سكّان المدن منذ آمـــاد ليست بالقصيرة، لذا فإنّهم يشتركون فيما يسمّى بـــ " **الثّقافة المدينيّة** "◆ الّتي رغم اختلافاتها من مدينة إلى أخرى، ومن منطقة إلى أخرى، إلاّ أنّها تشترك في خصائص كثيرة تعتبر قنوات تـــواصل، وبعد تشاركهم لنفس الرّقعة تعمّقت روابطهم ومصاهراهم ليتولّد عنها ما سمّيناه بـــ " **المخيال الجماعيّ** " الّـــذي من أهمّ ركائزه نجد " **الخريطة الإنتمائيّة** "، والّتي لعب الأندلسيّـــون الدّور الرّائد في تكوينها، كما نجم عن مصاهراتهم تلك تشاطرهم جملة من الخصائص والسّلوكات على الصّعيد الاجتماعيّ واللّغويّ وسائر مناحي الحياة، الأمر الّـــذي جعل من هـــذه العـــائلات " **مجالا** "◆ استنادا لقاموس " **بيير بورديو** "، في حين أنّ التّراكمات المتعلّقة بعاداتهم وتقاليدهم ونشاطاتهم اليوميّة ولهجتهم خلق إطارا قيميّا يوجّه سلوكات الفرد في إطار هذه المجموعة، وهو ما يعبّر عنه " **بيير بورديو** " باسم " **العوائديّة** "◆، وهـــذا ما يحيلنا إلى محاولة تبسيط الجهاز المصطلحاتيّ الّذي تبنّاه " **بورديو** " في تفسيره للظّواهر الاجتماعيّة على اختلاف طبيعتها.

1/ الجهاز المصطلحاتي لدى " بيير بورديو " :

(بناء على تحقيقاته الميدانيّة المتعدّدة، وتأمّلاته التّحليليّة ســـواء منها الإبستيمولوجيّة أو المنهجيّة، فإنّ " **بيير بورديو** " قـــد طوّر عدّة مصطلحات مفتاحيّة الغاية منها هو فهم أفضل للعالم الاجتماعيّ (عموما)، والعوالم الاجتماعيّة الجزئيّة (خصوصا)) (1)، وعن طريق هذا الهيكل المفهوماتيّ سعى إلى التّعاطي مع هذا العالم على أنّه تجاور مجموعة من هذه العوالم المتمتّعة بنوع من الاستقلاليّة – المجالات – الّتي في نطاقها كلّ فرد – أو **عامل**◆– نجده مزوّدا بما يشبه العلبة السّوداء – العوائديّة – الّتي تتحكّم في آن واحد في كلّ من تصوّراته وسلوكاته، أين نستشعر بوضـــوح نزعة " **الازدواجيّة** " المميّزة " **للبنيويّة التّقديّة** " لـــدى

(1) Thierry Watine, « Bourdieu et les médias : des lois du champ et de l'habitus comme présentations du conservatisme des journalistes », Les Cahiers du journalisme, n° 6, Octobre, 1999, pp 127.

" **بورديو** ".

يمكن أن نقولب الفهم الّذي يسعى إليه " **بورديو** " من خلال هذين المصطلحين، من خـــلال تشبيه هذين الأخيرين بعجلتين مسنّنتين، متداخلة أسنانهما تلك وتـــدوران تحت وطأة الوجود، وفي هذا السّياق (يمثّل " **المجال** " المجتمـــع، المجموعات البشريّة، الطّبقات...، في حين أنّ " **العوائديّة** " تمثّل الفرد، ذاتيّة الشّخص، وبين الحرّيّة المطلقة والجبريّة، فإنّ هؤلاء الأفراد والمجموعات البشريّة ليست في حقيقة الأمر دمى لهذه البنيات ولا سيّدة عليها، ولكنّها بطريقة يتداخل فيها العنصران أدوات بنائيّة وذوات مبنيّة في آن واحـــد، وهي الّتي تنتج في تقاطع مستمرّ الواقع الّذي يؤثّر في نفس الوقت عليها ويصبغها بصبغته) (1).

إنّ دوران العجلتين الخياليّتين اللّتين ذكرناهما يـــؤدّي إلى ما يسمّيه " **بورديو** " " **إعادة الإنتاج** " ◆ الّذي تحت وطأة التّكراريّة – التّراكميّة يفرز " **رأسمال رمزيّ** "، الّذي يصبح ساحة تنافس بامتياز، وبالتّالي الزّيت الّذي يضمن استمرار دوران تلك العجلتين، كما يضمن استمرار " **إعادة الإنتاج** ".

هـــذه صـــورة مبسّطة للتّرسانة المفهوماتيّة والتّنظيريّة لدى " **بورديو** "، فكيف نسقطها على الظّاهرة الّتي ندرسها ؟.

يمكن القـــول أنّ العائلات التّلمسانيّة تمثّل " **مجالا** " يؤثّر عن طريق مختلف الأساليب الّتي ينتهجها في تنشئة المنضوين في نطاقه تأثيرا جليّا، وهذا التّأثير ينعكس في مختلف سلوكات الأفراد المنتمين لهذه العائلات مفرزا بذلك ضربا من " **العوائديّة** "، ولمّا كانت هذه العائلات عريقة في وجـــودها، فقد تولّـــد جرّاء تفاعلها كمجال مع عوائديّة الأفراد المنتمين لها عن طريق صيرورة تراكميّة " **رأسمال رمزيّ** " هـــو مـــا يعرف بـــ " **الثّقافة المدينيّة** "، أو حسب تعبير " **ابن خلدون** " " **التّحضّر** ".

وفي سياق التّنظير الخلدونيّ نجد أنّ " **ابن خلدون** " يقسّم التّطوّر الاجتماعيّ للنّاس إلى طورين هما طـــور

(1) Thierry Watine, « Bourdieu et les médias : des lois du champ et de l'habitus comme présentations du conservatisme des journalistes », Les Cahiers du journalisme, n° 6, Octobre, 1999, pp 139.

" **البداوة** " و طور " **الحضر** "، معتبرا أنّ (البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأنّ البادية أصل العمران والأمصار مدد لها) (1)، ولكن من ناحية المسار التّطوريّ يرى أنّ التّحضّر مرحلة أرقى من البداوة، وهو يعبّر عن هذا بقوله (فخشونة البداوة قبل رقّة الحضارة، ولهذا نجد التّمدّن غاية للبدويّ يجري إليها، وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها، ومتى حصل على الرّياش الّذي يحصل له به أحوال التّرف وعوائده عاج إلى الدّعة، وأمكن نفسه إلى قياد المدينة) (2).

غير أنّ " **ابن خلدون** " لم يعالج مسألة الانتقال من طور البداوة * إلى طور الحضر والكيفيّة الّتي يتمّ بها ذلك، وهنا نرى أنّ مصطلح " **الرّأسمال الرّمزيّ** " وما يستغرقه من بعد إبستيمولوجيّ وعمليّ (الثّنائيّة الجدليّة مهيمن – مهيمن عليه) يعطينا المقاربة التّفسيريّة الّتي تشرح أحد أبعاد ظاهرتنا المدروسة، ذلك لأنّ البدويّ إذا أراد التّحضّر فإنّه يلجأ إلى الإقتداء بالحضر في كلّ ما يتّصل بهم، وفي هذه الحال يصبح " **الرّأسمال الرّمزيّ** " بورة صراع وتجاذب بين العائلات الّتي تسعى للحفاظ عليه وغيرهم من الّذين يريدون مشاطرتهم إيّاه حتّى يلحوا مرحلة التّحضّر والتّمدّن.

2/الإستراتيجيّات القرابيّة على ضوء المقاربة الثّنائيّة (حضر–بدو) :

قلنا أنّ البدو أو إذا أرادوا التّحضّر فإنّهم يسعون لمشاطرة الحضر في رأسمالهم الرّمزيّ، الأمر الّذي يقابله الحضر بالرّفض والانغلاق على الذّات، ومن بين وسائل الوصول إلى " **الرّأسمال الرّمزيّ** " نجد

---

(1) ابن خلدون (عبد الرّحمن)، " المقدّمة "، دار الفكر للطّباعة والنّشر لا والتّوزيع: بيروت – لبنان، الطّبعة الأولى، 1424 هـ – 2004 م، ص137.

(2) المرجع السّابق، ص137.

* سنستعمل هنا لفظة البداوة كمرادف للعناصر البشريّة الوافدة تجاوزا، وإن كانت هذه الأخيرة أوسع دلاليّا وعمليّا من لفظة البداوة وما تدلّ عليه من النّاحية الدّيمغرافيّة.

بامتياز المصاهرات الّتي تسعى بعض العناصر الوافدة إلى عقدها مع الحضر، الأمر الّذي يرفضه هؤلاء، لكن هذا الرّفض – إذا ما اعتمدنا المقاربة الدّيالكتيّة في التّحليل – سرعان ما يضعف تحت وطأة عاملين هما:

1- التّغيّرات الدّيمغرافيّة الحاصلة على صعيد البنية البشريّة الحضريّة، أين تختفي بعض العائلات من لائحة " **الحضر** " لسبب من الأسباب كإنجاب البنات فقط، الهجرة،....، وهذه التّغيّرات المستنزفة لقوّة النّسيج البشريّ لدى هذه المجموعة لابدّ من تعويضها ضمانا للبقاء والاستمراريّة.

2- استقرار طويل الأمد نسبيّا لبعض العائلات من " **البدو** " في المدينة وأخذهم بالعادات الحضريّة، والّذين يعتبرون الرّافد المعوّل عليه في سدّ ثغرة التّغيّرات الدّيمغرافيّة الّتي تشهدها بنية العائلات الّتي ترى نفسها التّركيبة الأصليّة للمدينة.

لقد استخلصنا هاتين النّقطتين من خلال المقابلات الّتي أجريناها، والّتي من خلالها نرى أنّ البنية الحضريّة تأخذ صيرورة تطوّريّة ثنائيّة المراحل، ، والمخطّط التّالي يوضّح ذلك:

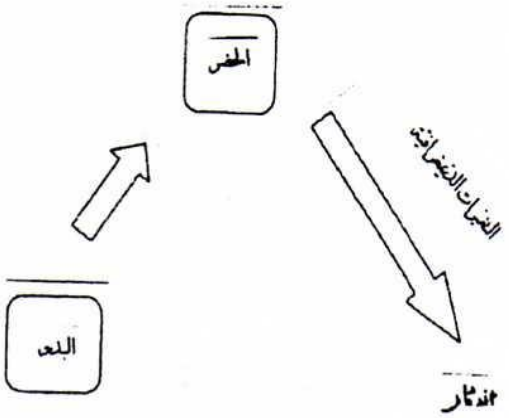

مخطّط الصّيرورة التّطوّريّة الثّنائيّة

وأن ترثهم العرب ولا يرثونهم، وأن تقصرهم من عطائهم وأرزاقهم وأن يقدّموا في المغازي، يعلمون الطّريق ويقطعون الشّجر، ولا يؤمّ أحد منهم في الصّلاة ولا يتقدّم أحد منهم في الصّفّ الأوّل إلاّ أن يتمّوا الصّف، ولا تولّي أحدا منهم قضاء المسلمين ولا أحكامهم) (1)، (وقد روي أنّ " **المقداد بن الأسود** " طلب إلى " **عبد الرّحمن بن عوف** " أن يزوّجه ابنته، فغضب " **عبد الرّحمن** " وأغلظ له القول، فشكا " **المقداد** " ذلك إلى رسول الله (ص) فطيّب خاطره وقال له: أنا أزوّجك، فزوّجه ابنة عمّه " **ضباعة بنت الزّبير بن عبد المطّلب** "، وخطب " **سلمان الفارسيّ** " إلى " **عمر بن الخطّاب** " ابنته، فوعده بها، فشقّ ذلك على ابنه " **عبد الله ابن عمر**"، فلقي " **عمرو ابن العاص** "، فشكا إليه، فقال: سأكفيكه، فلقي " **عمرو** " " **سليمان** " فقال له : هنيئا يا أبا عبد الله، هذا أمير المؤمنين يتواضع لله عزّ وجلّ في تزويجك ابنته، فغضب " **سليمان** " وقال: لا والله لا تزوّجت إليه أبدا) ونجد مؤشّرات لمثل هذا عند العرب في الكثير من مصنّفاتهم وكتبهم الفقهيّة (لاحظ الملحق الثّامن).

وفي إطار الجامعة الرّبيعيّة المبرمجة في إطار المدرسة الدّكتوراليّة للأنثروبولوجيا الّتي أقيمت بمدينة " **غرداية** "، لاحظنا أنّ هذه الأخيرة تتّسم بخصوصيّات هي الأخرى على مستوى المسألة القرابيّة، فهي الأخرى تعرف زيجات حصريّة يعقدها " **الميزابيّون** " بينهم، إذ لا يصهرون للعرب المجاورين لهم إلاّ نادرا، ولكن الفرق بين هذه الزّيجات في كلتا المدينتين هو أنّها في " **تلمسان** " ترجع أسبابها إلى الجانب الثّقافي المستتر وراء ستار العرقيّة، في حين أنّها بـــ " **غرداية** " ترجع إلى سبب عرقيّ مستتر وراء الاختلاف المذهبيّ: إباضيّة – مالكيّة حسب ما عايناه ، والله أعلم.

هذه بعض الأمثلة على كون ظاهرة الإستراتيجيّات القرابيّة الحصريّة ظاهرة موجودة لدى كلّ النّاس بطريقة أو بأخرى تحت وطأة دافع من الدّوافع، والمتحرّي لنظائرها وأشباهها لدى الأجناس الأخرى غير الّتي ذكرنا لن يعدم الحصول على كثير من مثيلاتها.

(1) فوزي سعد الله، " يهود الجزائر "، الجزء الأوّل، دار قرطبة للنّشر والتّوزيع: الهمّديّة – الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1426 هـ/ 2005م،ص53.

(2) د/ عبد السّلام التّرمانيني، " الزّواج عند العرب في الجاهليّة والإسلام "، سلسلة " عالم المعرفة "، العدد 80، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، الكويت – الكويت، بدون طبعة، 1998م، ص125.

تطرّقنا في هذه الدّراسة الأنثروبولوجيّة لمسألة الإستراتيجيّات القرابيّة لدى العائلات التّلمسانيّة الكبيرة معتمدين في إنجازها على مجموعة من أساليب البحث العلميّة، بغية الوصول إلى إجابة للتّساؤلات الّتي راودتنا بها، من أجل تتبّع مسار التّاريخ الاجتماعيّ لمدينة " تلمسان "، حيث شهدت تراكمات إثنيّة على صعيد تركيبتها البشريّة، إذ استوطنها البربر والعرب والأندلسيّون والأتراك، ونشأت بينهم المصاهرات الّتي أخذت فيما بعد طابعا انغلاقيّا حصريّا يروّج له في الخطاب العاميّ على أنّه راجع لكون هذه العائلات تنحدر كلّها من العنصر التّركيّ، وبالتّالي فهذا الضّرب من الزّيجات والمصاهرات الحصريّة مردّه الحفاظ على الصّفاء العرقيّ، وهو أمر يتنافى مع النّتائج المتوصّل إليها فيما يتعلّق بأصول هذه العائلات الّتي أثبتت النّصوص التّاريخيّة والذّاكرة العائليّة أنّه غير مؤسّس، ثمّ تناولنا التّغيّرات الدّيمغرافيّة الّتي شهدتها مدينة " تلمسان " والمتمثّلة في استقرار عناصر بشريّة أخرى بها – والّتي تتقاطع معها في الأصول باعتبارهم بربرا أو عربا أو أندلسيّين أو أتراكا – والّتي رأت فيها هذه العائلات تهديدا لتناغمها العرقيّ – الوهميّ كما هو رائج في الخطاب العاميّ – خصوصا وأنّ البعض منهم يحاول ربط علاقات مصاهرات مع هذه العائلات الّتي تنفر من مثل هذه الزّيجات وتميل إلى الانغلاقيّة وحصرها في نطاق متعارف عليه بين أفرادها – بناء على الخريطة الإثنيّة المتعلّقة بالألقاب العائليّة - ، الأمر الّذي حملنا على البحث عن الأسباب الفعليّة الكامنة وراء هذا الضّرب من الزّيجات، وأسباب النّفور من غيرها من ضروب الزّيجات، وهل هذه الزّيجات فعلا حصريّة أم أنّها كذلك فقط في تخيّلات النّاس؟ فكان أن توصّلنا إلى نتيجة مفادها أنّ العامل المحرّك لمثل هذا الضّرب من الزّيجات يرجع بالأساس إلى طبيعة الإرث الّذي تشترك فيه وتتقاسمه هذه العائلات وتسعى للحفاظ على استمراريّته، والمتمثّل فيما سمّيناه بالثّقافة المدينيّة الّذي يقابله إرث العناصر الوافدة ذو الطّبيعة البدويّة لنجد أنفسنا في نفس الجدليّة الّتي طرحت ولا تزال مطروحة عن طبيعة العلاقة بين البيئتين الحضريّة والبدويّة، ولتفسيرها بناء على تركيز اهتمامنا على نقطة المبادلات القرابيّة عمدنا إلى تبنّي الإطار المنهجيّ لـــدى

" بيير بورديو "، من خلال إسقاط معجمه المصطلحي (المجال، العوائدية، الرأسمال الرمزي) على عناصر هذه المقاربة البحثية، فكان أن توصلنا إلى كون الإرث الحضري بناء على كونه رأسمال رمزي هو دائما محلّ تنازع وتجاذبات بين العناصر (المجال الأوّل) الّتي تمتلكه وتسعى للحفاظ عليه (من خلال البرمجة العوائدية) وبين العناصر الّتي لا تزال في طور السّعي لامتلاكه (المجال الثّاني)، والّتي ترى في نسج علاقات مصاهرة مع العناصر الممتلكة له عاملا لبلوغه، الأمر الّذي تعمل وتحول دونه النّزعة الانغلاقيّة لدى العناصر الأقدم على صعيد الثّقافة المدينيّة،علاوة على كلّ هذا فإنّا تطرّقنا فيه لمعالجة الواقع الفعليّ لمبادلات العائلات التّلمسانيّة الكبيرة وهل هو فعلا حصريّ ؟ فكان أن توصّلنا إلى كون هذه المبادلات ذات نزعة حصريّة لكنّها ليست بصورة مطلقة كما هو رائج على مستوى الخطابْ العاميّ، بل كانت هناك مبادلات خارج النّطاق العرفيّ لدى هذه العائلات حتّى قبل ظهور التّغيّرات الدّيمغرافيّة الكبيرة الّتي شهدتها مدينة " تلمسان "، ولا تزال هناك مثل هذه المبادلات اليوم، وهي الأخرى تحتاج إلى دراسة خاصّة، كما أنّنا إضافة لتفسيرنا هذه الظّاهرة استنادا للمقاربة المنهجيّة لدى " بيير بورديو "، فقد عمدنا إلى مقارنتها ببعض من مثيلاتها في مختلف الأمكنة والأزمنة. في الحقيقة لا تزال هذه الدّراسة بحاجة إلى مزيد من التّعمّق والبحث سواء ما اتّصل بأسباب نشوئها، أو بالخطابات العاميّة المبرّرة لها أو الّتي تذمّها، أو بواقعها الفعليّ على المستوى المعاش، أو ما يتّصل بتطوّراتها المقبلة.

المصادر والمراجع

1/ المصادر:

أ/ باللّغة العربيّة:

1- ابن خلدون، عبد الرّحمن، " المقدّمة "، دار الفكر للطّباعة والنّشر، لبنان، ط 1، 2004 م.

2- لوبون، غوستاف، " حضارة العرب "، دون دار نشر، مصر، دون تاريخ.

3- " دائرة المعارف الإسلاميّة "، دار المعرفة، لبنان، المجلّد 5، دون تاريخ.

4- زرّوق، أحمد، " عدّة المريد الصّادق "، دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، لبنان، ط 1، 2006 م.

5- " المنجد في الأعلام "، دار المشرق، لبنان، ط 2، 1969 م.

6- ابن سعيد، عليّ بن موسى الغرناطيّ، " كتاب الجغرافيا "، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ط 2، 1982 م.

7- خوجة، حمدان بن عثمان، " المرآة "، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط 2، 1982 م.

ب/ باللّغة الفرنسيّة:

1- Encyclopédie « L'évolution humaine : des origines a nos jours », Aristide Quillet édition, France, T 2, 1951.

2- Encyclopédie « UNIVERSALIS », France, T 21, 2002.

3- « Grand Larousse Universel », Larousse – Bordas, Italie, Vol 14, 1997.

2/المراجع:

أ/باللّغة العربيّة:

1- التّرمانيني، عبد السّـــلام، " الزّواج عند العرب في الجاهليّة والإســـلام "، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998 م.

2- فيفر، لوسيان، " الأرض والتّطوّر البشريّ "، دار المطبـــوعات الجـــديدة، مصر ، ط 2، 1973 م.

3- الطّمّار، محمّد، " تلمسان عبر العصور "، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2007 م.

4- المدني، أحمد توفيق، " كتاب الجزائر "، دار الكتاب، الجزائر، ط 2، 1963 م.

5- لاروك، بيار، " الطّبقات الاجتماعيّة "، منشـــورات عويدات، فرنسا، ط 2، 1980 م.

6- الخوري، فؤاد إسحاق، " مـــذاهب الأنثروبولوجيا وعبقريّة ابن خلدون "، لبنان، ط 1، 1992م.

7- العتيقيّ، عماد محمّد، " دليل إنشاء وتحقيق ســـلاسل الأنساب "، المجلس الـــوطنيّ للثّقافة والفنون والأدب، الكويت، ط 1، 2001 م.

8- سعد الله، فوزي، " يهود الجزائر "، دار قرطبة للنّشر والتّـــوزيع، الجزائر، ج 1، ط 2، 2005 م.

ب/باللّغة الفرنسيّة:

1- Aroua , A, « L'Islam et la morale des sexes », OPU, Algérie, 1998.

2- Ensemble d'auteurs, « Traité de la psychologie expérimentale », T 3, PUF, France, 2 Edition, 1973.

3- Ensemble d'auteurs, « Les notions clés de l'ethnologie », Armand Colin/ Masson, France, 1998.

4- Bergès, M, « Claude Lévi – Strauss et les réseaux : parenté et politique », UQAC, Canada, 2008.

5- Bouzar, w, « La mouvance et la pause », SNED, Algérie, 1983.

6- El Hammamy, A, « Idris », ENL, Algérie, 2 Edition, 1988.

3- المجلات والدوريات:

1- مجلّة " الأصالة "، العدد 26، مطبعة البعث، الجزائر، السّنة الرّابعة: جويلية – أوت 1975 م.

2- « Guide touristique de Tlemcen et sa région », Imprimerie Ibn Khaldoun, Algérie, 1994.

4- المقالات:

1- Fournier, H, Intervention à l'ouverture du colloque sur « Le territoire, lien ou frontière ?», Fran ce, 1995.

2- Claval, P, « Le territoire dans la transition à la postmodernité », France, 1995.

3- « Révolution agraire : Discours du président Boumédiène », CADI, France, 1972.

4- Watine, T, « Bourdieu et les médias : des lois du champ et de l'habitus comme présentations du conservatisme des journalistes », les Cahiers du journalisme, n°6, 1999.

الملاحق

إستبيان

الاسم : ..... اللّقب : .....

لقب الفتاة المتزوّجة الأوّل : .....

السّنّ :..... الجنس : .....

مكان الميلاد : ....

1- ما الّذي يعنيه لك مفهوم الانتساب إلى " تلمسان " ؟

الازدياد بهذه المدينة العيش بهذه المدينة الانتماء لإحدى العائلات التّلمسانيّة الكبيرة

2- أذكر ألقاب العائلات التّلمسانيّة الّتي تعرفها :

.....

.....

.....

.....

.....

3- من بين هذه العائلات اختر عائلتان مشهورتان:

أ/ ..... ب/ .....

4- علّل اختيارك هذا :

أ/ بالنسبة للعائلة الأولى:

.....

.....

.....

ب/ بالنّسبة للعائلة الثّانية :

.....

.....

.....

هل لديك أقارب منهما معا أو من إحداهما ؟ :

منهما معا من إحداهما ليس لدي أقارب منهما.

ما هو نوع القرابة إن وجد ؟ :

.....

.....

.....

من أيّ الأصول تنحدر هاتان العائلتان ؟ :

أ/ بالنسبة للعائلة الأولى :

ب/ بالنسبة للعائلة الثّانية :

.....

.....

من أين استقيت معلوماتك حول أصولهما ؟ :

من عند أشخاص	كتب، مجلاّت،...	وسائل الإعلام	مصادر أخرى
أ-	أ-	أ-	أ- .....
ب-	ب-	ب-	ب- .....
ج-	ج-	ج-	ج- .....

الملحق الثّاني

الاسم : ..... اللّقب : .....

السّنّ : ..... الجنس : .....

مكان إجراء المقابلة :.....

تاريخ إجراء المقابلة : .....

1- ما معنى كلمة تلمسانيّ بالنّسبة لك؟

2- هل هناك فرق بين مدلول هذه الكلمة وكلمة " ولاد لبلاد " ؟

3- هل لك أن تعطينا بعضا من ألقاب العائلات التلمسانيّة .

4- هل صحيح أنّ كلّ هذه العائلات التّلمسانيّة ذات أصول تركيّة ؟

5- لماذا تحصر هذه العائلات زيجاتها فيما بينها ؟

6 - هل لك أن تصف لنا كيف كان يتمّ اختيار شريك الحياة الزّوجيّة في عهدكم ؟

7 – برأيك هل تغيّرت الأمور اليوم ؟

8 – ما هي العوامل المسبّبة لهذه التّغيّرات ؟

9 – هل هذه التّغيّرات القرابيّة موجودة لدى كلّ العائلات التّلمسانيّة ، أم بعضها فقط ؟

10 – هل المصاهرات المختلطة ناجحة ؟

11- هل صحيح أنّ اختيار شريك الحياة الزّوجيّة اليوم أضحى بيد الأبناء والبنات؟

12- لماذا تراجع دور الوالدين في مسألة الاختيار؟

13- هل يقف الوالدان عائقا أمام اختيارات أبنائهم إذا لم تتماشى مع تطلّعاتهم العائليّة ؟

14- ما هي الاعتبارات الّتي يجب توفّرها في شريك الحياة الزّوجيّة ؟

15- هل ترى أنّ نظرة الآباء تتقاطع مع نظرة الأبناء فيما يتّصل بهذه الاعتبارات ؟

16- ما الّذي يمثّله " الاسم العائليّ " للعائلات التّلمسانيّة حينما يرتبط الأمر بالمصاهرة ؟

17- هل هناك عوامل أخرى تلعب دورا في رسم ملامح المصاهرات بين هذه العائلات غير الاسم العائليّ ؟ وما هي إن وجدت ؟

18- هل هناك فرق بين تقديركم وتقدير أبنائكم فيما يتعلّق بهذه العوامل ؟

19- برأيك لماذا تنفر العائلات التّلمسانيّة من مصاهرات غيرها ؟ هل هناك تفسير يبرّر ذلك ؟

Les noms des conjoints	N° d'acte de mariage	La date du mariage
Bey Omar Mohamed – ***Djouidat*** Fetima		15 Septembre 1931
Bey Omar M'hammed – ***Allal*** Fetima		03 Novembre 1932
Bey Omar Mohammed – ***Aboura*** Khedoudja		08 Octobre 1936
Bey Omar Tedjini – **Ben Habib** Nafissa		26 Aout 1937
Bey Omar Allal – ***Douidi*** Houria		07 Aout 1939
Bey Omar M'hammed – ***Hassaine*** Khadidja		17 Février 1941
Bey Omar Djilali – ***Taleb bendiab*** Saliha	282	1944
Bey Omar Ahmed – ***Boukdi*** – ***Hacaine*** Rabia	386	1945
Bey Omar Allal – ***Mekki*** Aicha	182	1951

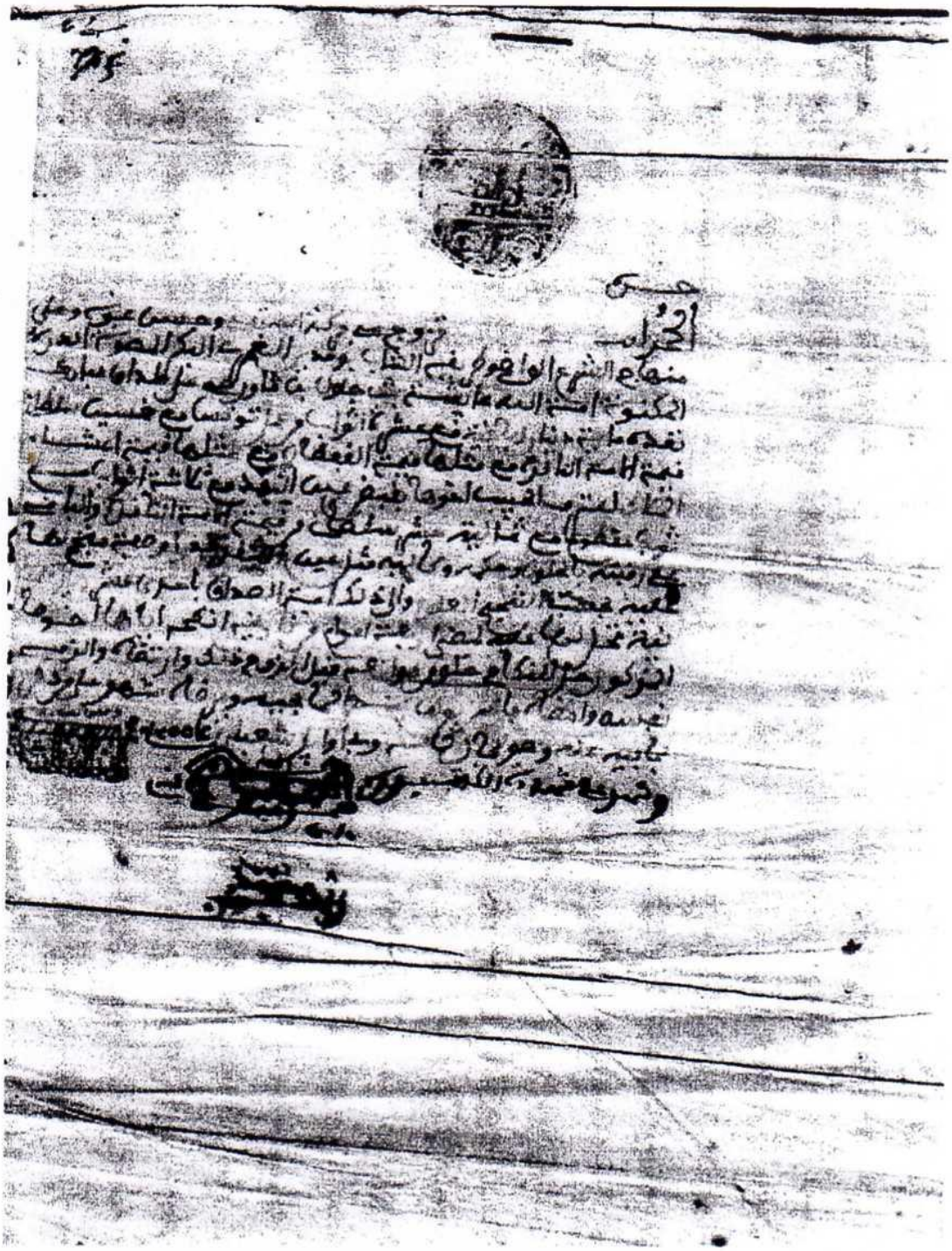

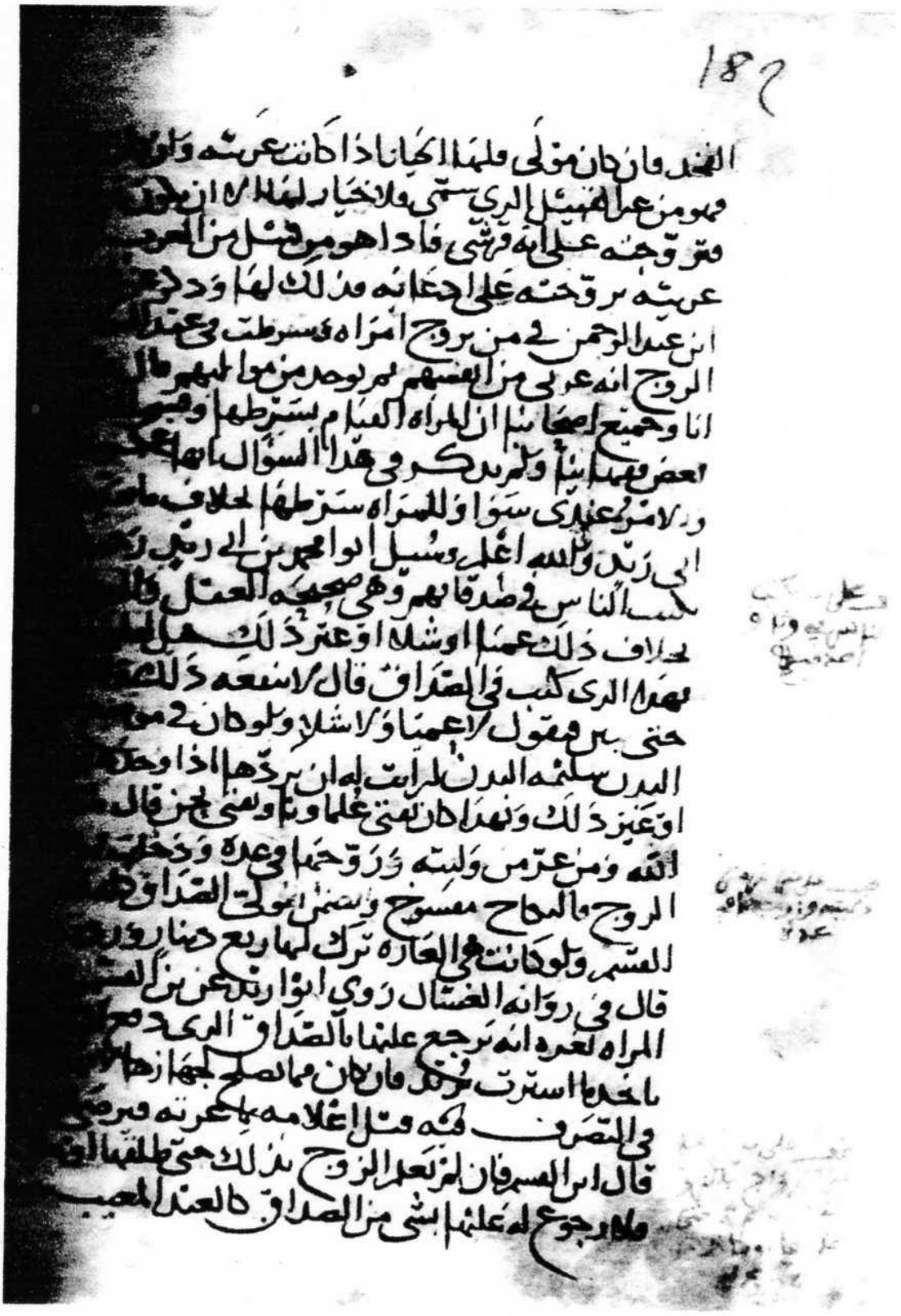

معجم عربي – فرنسي للمصطلحات الواردة في متن المذكّرة

Le contrat social	العقد الاجتماعيّ
Système de parenté	نظام القرابة
Stratégies matrimoniales	الإستراتيجيّات القرابيّة
Pureté raciale ou ethnique	صفاء عرقيّ
Le processus social	الصّيرورة الاجتماعيّة
Changement du lien social	تغيّرات الرّابط الاجتماعيّ
Le lien parental	الرّابط القرابيّ
L'holisme	المقاربة المنهجيّة التكامليّة
L'exode rural	الهجرة الرّيفيّة
Le nom de famille	اللّقب العائليّ
Le capital symbolique	الرّأسمال الرّمزيّ
Race métissé	عرق هجين
Mariage des proches	زواج الأقارب
Mariage de caste	زواج طبقيّ
Imaginaire collectif	مخيال جماعيّ
Carte d'appartenance	الخريطة الإنتمائيّة
Sous groupes	مجموعات صغيرة
Mécanisme de rapprochement	آليّة القرب
Exogamie	زيجات خارجيّة
Endogamie	زيجات داخليّة
La personnalité Tlemcenienne	الشّخصيّة التلمسانيّة
Narcissisme culturel	النّرجسيّة الثّقافيّة
Régression culturel	نكوص ثقافيّ
Patriarcal	بطريكيّ

Mecanisme de justification	آليّة التبرير
Mariages mixtes	الزّيجات المختلطة
Dominant – dominé	مهيمن – مهيمن عليه
La culture citadine	الثّقافة المدينيّة
Le champ	المجال
L'habitus	العوائديّة
Agent	العامل (الاجتماعيّ)
La reproduction	إعادة الإنتاج
L'inconscient collectif	اللاّشعور الجماعيّ

الفهرس

- تشكّرات ص1

- إهداء ص2

- الرّموز المستعملة في المذكّرة ص3

- ملاحظات مهمّة.....ص4

- مقدّمة ص5

- الفصل الأوّل: مقوّمات البحث المنهجيّة.....ص11

1- إشكاليّة الدّراسة ص15

2- فرضيّات الدّراسة ص16

3- أسباب اختيار هذا الموضوع ص17

4- أهداف دراسة هذا الموضوع ص19

5- المقاربة المنهجيّة للموضوع وأدوات البحث الميدانيّ.....ص21

6- المعجم الاصطلاحيّ للدّراسة الميدانيّة.....ص23

- الفصل الثّاني: الجغرافيا، التّاريخ وميلاد مخيال جماعيّ ص24

1- أهمّيّة البعد الجغرافيّ في الدّراسات الأنثروبولوجيّة.....ص26

1-1/ تلمسان من النّاحية الجغرافيّة ص29

2- تلمسان من النّاحية التّاريخيّة.....ص31

- الفصل الثّالث: المبادلات القرابيّة التّلمسانيّة بين الموروث والتّحوّلات الاجتماعيّة.....ص50

1- زيادة توضيح.....ص51

2- الانتماء الاجتماعيّ للعائلات التّلمسانيّة.....ص52

2-1/ الأرستقراطيّات.....ص52

2-2/ الشّرفة.....ص53

2-3/ المرابطيّة.....ص54

2-4/ العنصر التّركيّ.....ص54

3- انعكاسات التّوجّهات السّياسيّة للدّولة على الواقع الاجتماعيّ التّلمسانيّ.....ص56

- الفصل الرّابع: العائلة التّلمسانيّة بين الزّيجات الدّاخليّة والخارجيّة: دراسة نموذجيّة.....ص66

1- إعادة صياغة معطيات الشّجرة وتحليلها.....ص71

- الفصل الخامس: القراءة الأنثروبولوجيّة للإستراتيجيّات القرابيّة التّلمسانيّة.....ص85

1- الجهاز المصطلحاتيّ لدى " بيير بورديو " ص90

2- الإستراتيجيّات القرابيّة على ضوء المقاربة الثّنائيّة (حضر – بدو) ص92

3- كونيّة النّزعة الانغلاقيّة للإستراتيجيّات القرابيّة.....ص94

- الخاتمة.....ص96

- المصادر والمراجع.....ص98

- الملاحق.....ص101

- الفهرس.....ص114

تمّت المذكّرة

ملخّص:

هذه دراسة أنثروبولوجيّة الهدف منها معرفة ارتسامات الواقع المبادلاتيّ القرابيّ لدى العائلات التّلمسانيّة، واستجلاء الفوارق بينه وبين الخطاب العاميّ المتدوال في أوساط هذه الأسر، إنّها استشفاف للأسباب التي تحمل مجموعة من الأسر التّلمسانيّة على حصر زيجاتها فيما بينها، وحالة هذه المبادلات على ضوء التّغيّرات الاجتماعيّة التي تمسّ مدينة تلمسان اليوم.
الكلمات المفتاحيّة: الإستراتيجيّات القرابيّة، الزيجات الدّاخليّة، الزّيجات الخارجيّة، العوائديّة، الرأسمال الرّمزي.

Résumé :

C'est une étude anthropologique qui vise a appréhendée les divers manifestations qui caractérisent le champ des échanges matrimoniales des grandes familles Tlemceniennes, et savoir s'il est conforme avec le discours répandue au sein des ces familles. Elle vise la connaissance des raisons qui poussent ces familles a conservées leurs échanges matrimoniales rien qu'entre eux vis-à-vis les changements sociales qui touchent Tlemcen récemment.

Mots clés : les stratégies matrimoniales, endogamies, exogamie, Habitus, capitale symbolique.

Summary:
This is an anthropological study that aims to apprehended the various events that characterize the field of matrimonial exchanges Tlemceniennes greats families, and whether it complies with the common discourse within these families. It is knowledge of the reasons why these families have kept their marriage anything exchange between them in face of the social changes affecting Tlemcen recently.
Keywords: matrimonial strategies, endogamies, exogamy, Habitus, symbolic capital.